# الطيّب صَالح




## ٧

## وطني السودان



# الطيب صالح

## مختارات

# الطيب صالح

## مختارات

## ٧

## وطني السودان



SUDAN, MY HOME

By

*El Tayeb Salih*

تحرير: د. حسن أبشر الطيب
محمود صالح عثمان صالح

First Published in May 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyes-books.com
• www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21203-6



تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: أيار/مايو ٢٠٠٥

# الإهداء

إلى إخواني وأصدقائي: محمود صالح عثمان صالح، حسن أبشر الطيب، محمد الحسن أحمد، حسن تاج السر ـ الذين بلطفهم وحسن معشرهم يجعلون الحياة أكثر احتمالاً. وإلى محمد إبراهيم الشوش والفاتح إبراهيم أحمد رفقاء الأيام الجميلة من واشنطن.

# ١

الأربعاء، ١٩٨٨/٩/٢١.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين.
الساعة ٤,٥٠ مساء.

خرجنا من دار عثمان محمد الحسن متأخرين لأنه وقف طويلاً في صف البنزين. هذه الطوابير أصبحت سمة من سمات الخرطوم منذ عهد بعيد. طابور الخبز، تقف فيه منذ منتصف الليل حتى طلوع الشمس، نساء حرائر، ما كنّ يقفن مثل هذا الموقف من قبل، من اللائي قال فيهن الشاعر «ما خرجن لريبة كظباء مكة صيدهُن حرامُ». طابور السكر، الرجال والنساء والكهول والشيوخ والصبيان. طابور الأحذية التي جاءت من مصر، والثياب الجاهزة التي وصلت من كوريا والصين. طابور حلويات العيد. طوابير عند أبواب السفارات، للسفر، للخروج، للهروب، للرحيل. ناس من الشمال يضربون في

أرض الله شرقاً وشمالاً، وناس من الجنوب، مثل جيوش النمل، تسير، تسير، من جوبا إلى ملكال. ومن ملَكَال، إلى شَنْدي إلى أتْبرا، إلى مروى، إلى الدبَّة، إلى حلفا على حدود مصر. أمواج في أثر أمواج من أقوام زلزلتهم الحروب والمجاعات والفيضانات، والحكام الأغبياء والوعود الكاذبة. ما كانوا من قبل يأبهون للطعام والشراب، فأصبح همُّهم الطعام والشراب. «فلا تكن يا عبد الله كالسائمة التي وجدت مرعى خصباً، فأصبح همها في السِّمَن وداؤها لو تعلم في السمن». ما كانوا يأبهون للمظهر، فأصبحوا يتنابذون بالألقاب، ويتطاولون في البنيان، ويتفاخرون بسيارات المرسيدس، وترى المرأة وهي تحمل على جسمها من الثياب والحلي ما كان يكفي لإعاشة أسرة كاملة، حولاً كاملاً، في الزمان القديم. زاد الكلام عن الإسلام وكثرت المساجد، وضعف الإيمان. زادت المدارس، وعمَّ الجهل. زادت المستشفيات وتفشت الأمراض. لا عدل ولا حرية ولا ديموقراطية إلّا في بيانات الحكومة ومحطات الإذاعة.

الحكّام السابقون واللاحقون والسابقون اللاحقون. وجعفر محمد النميري في منفاه يحلم بالعودة. تعود لأي شيء يا رعاك الله؟ أما حكمت قرابة عشرين عاماً، فكنت مثل طفل شرس أطلق سراحه في متحف للخزف النادر، فكسرت وهشمت؟ أما وجدت ثوباً ناعماً فريداً غَزَلَتْه بتؤدة وحكمة، أصابع رجال عباد زهاد، ونساء صابرات قانتات، فمزقته وأنت تظن أنك تحسن صنعاً؟

* * *

**المدينة مثل ثوب قديم مبتل، لم يغسل منذ زمن طويل. دار عثمان محمد الحسن في «المقرن» أغرقتها المياه، ومحت بعض رسائل جمال محمد أحمد التي يعمل عثمان على جمعها وإخراجها في**

كتاب. إن الله سبحانه وتعالى قد رأف بأستاذنا الجليل أنه مضى ولم يشهد كل هذا الخراب. الشوارع مثل أطلال خولة، وأنصاب «ثورة» أيار/ مايو التي هشّموها أيام الانتفاضة لم يستطيعوا إزالتها بعد. كتل قبيحة من الإسمنت والحديد، لا تقول شيئاً ولا تعني شيئاً، إلّا أنهم أعطوها صفات طنّانة مثل «تحالف قوى الشعب العاملة» أو «الثورة فكر وعمل وإنتاج». ولا فكر ولا عمل ولا إنتاج. وقد أصبحت إزالتها مشكلة ككل بقايا ذلك العهد الميمون. وتقول، ما لهم وللتماثيل؟ في مدينة أرضها صلصال ونيلها زلال، أما كان يكفي قليل من النبات وقليل من الأزهار؟ لكنهم جاءوا بخبراء تخطيط المدن من إيطاليا والسويد، فدفع من دفع، وأخذ من أخذ، ورحل الخبراء وازدادت المدينة قبحاً.

إنني أدري لماذا أنا حزين الآن في هذا المكان. لقد وقفت على قبر إنسان عزيز، أعزّ إنسان عندي، وانقطع أهم خيط كان يربطني إلى هذه الديار. الحزن يعلو ويخبو، ويمتد عبر زمن طويل. ويأتي على أشكال عدة، ويهجم عليك من حيث لا تحتسب. لقد صبرت حين كان يتحتَّم عليَّ أن أبكي، وبكيت حين كان يجمل بي الصبر. لذلك يدهمني الحزن الآن، في هذه الصالة الرثة، في هذا المطار القميء، في هذه المدينة المهملة، في هذا الوطن الحبيب اللعين. وتحول الحزن الخاص إلى حزن عام، بسبب هذه اللوحة أمامي في صالة المغادرة. منذ كم ألف عام وضعت هذه اللوحة. في هذا المكان؟ ومن الذي وضعها؟ وماذا كان يدور في رأسه؟ لوحة بهتت ألوانها واختلطت، كُتب عليها باللغة الفرنسية Bon Voyage وباللغة العربية «رحلة سعيدة».

# ٢

الأربعاء ١٩٨٨/٩/٢١.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين.
الساعة ٤,٥٠ مساء

إنما هذان البيتان، حتماً، لأبي تمّام:
سودُ الوجوهِ كأَنما نَسَجتْ لهم
أيدي السَّمومِ مَدَارِعاً من قَار
لا يبْرَحُونَ، ومن رآهم خالَهم
أبداً على سفر من الأسفار

وكأنما عنى بهما هؤلاء القوم، الذين يُسمَّوْن مجازاً، السودانيين لأن زعماءهم عشية الاستقلال، لم يستقروا على رأي، ويا ليتهم عادوا إلى الاسم القديم «سِنَّار». كان السِنّاريون معروفين في العالم

الإسلامي شرقاً وغرباً، لهم وقف في المدينة المنورة والأزهر الشريف، وهداياهم تذهب كل عام في محمل عظيم إلى مكة المكرمة. وربما يكون من أسباب أن هذا البلد لا يستقر على حال، أن اسمه لا يعني لأهله شيئاً. فما السودان؟ مصر مصر، واليمن يمن، والعراق عراق، ولبنان لبنان، ولكن ما السودان؟ لقد أطلق المستعمرون هذا الاسم على كل تلك الرقعة الممتدة من حدود الحبشة شرقاً إلى غاية بلاد السنغال غرباً، فوجد الناس لبلادهم أسماء تعني لأهله شيئاً، وبقينا نحن وحدنا نحمل هذه التركة الاستعمارية الجوفاء. لذلك يستند «جون قَرَنْقْ» إلى الرمز الاستعماري في دعواه الباطلة، فيقول، هذه بلاد السُّود، بلاد الزِّنْجْ، وأنتم أهل الشمال عربٌ دخلاء. ويعتبر الأرض مغتصبة، يريد أن يحررها «شبراً شبراً» كما يزعم. وإلّا فمن يريد أن يحرر السودان؟ وما معنى «جيش تحرير السودان»؟ وإذا سار الحال، على هذا المنوال، فما الذي يحول بينه وبين تحقيق هذا الحلم؟ إنه الآن، في هذه اللحظة، يستطيع أن يُسقِطْ مئات من المظليين من طائرات الهليكوبتر، التي تمده بها هذه الدولة أو تلك، ويحرك مئات الآلاف من أعوانه الذين يحيطون بالخرطوم كحلقة الخاتم. حينئذ سوف يجد الصادق المهدي وحسن الترابي ومنصور خالد وبقية هؤلاء السادة النجباء، أن النسيج الذي نسجوه، أوهى من بيت العنكبوت. سوف تراق دماء كثيرة، حينئذٍ سوف نسمع نشيداً جديداً، ونرى وجوهاً جديدة على شاشات التلفزيون. سوف تُغلق أبواب وتُفتح أبواب، وتعيش أحلام وتموت أحلام. وسوف يكون السودان «سوداناً» بحق وحقيق حينئذٍ.

**آه. صدقت يا أبا تمام. ولكن هذا السواد مثل غيم كثيف في ليلة قَمْراء، فوراء الظلام الذي تراه ضوء كثير. وقد أعطت تصاريف الأيام ونوائب الدهر، بعداً آخر للبيْتين، كما يقول نقاد الشعر. لم**

يكن هؤلاء القوم «يبْرحون» هذه الديار المترامية الأطراف. كانوا قانعين بما قسم اللهِ لهم فيها، وهو كثير. يزرعون النخل في ديار «المحَسْ» و«السُكُّوتْ» ويزرعون الحنطة والشعير في ديار البديريّة والشايْقِيَّة والرِّكابيِّينْ. يزرعون الموز في كَسلا، والبرتقال والجوافة في شنْدي، والذرة في أرض البُطانة، والقطن في أرض الجزيرة، ويجنون الصمغ العربيّ من شجر الهَشّابْ في كردفان. يصيدون البقر الوحشيّ في جبل مَرّه والظباء عند تخوم بحر الغزال. يأكلون سمك النيل الأبيض وسمك البحر الأحمر. يُخرجون الذهب من مكامنه في «حلايبْ» وفي «جبال شَنْقُولْ» كانوا يتناشدون شعر «الدُّوبِيتْ» على الآبار، ويرقصون «الدّليبْ» في ضوء الأقمار، ويرتّلون القرآن في جوف الأسحار، ويستخفّهم الطرب في حلقات مديح المصطفى المختار. كانت البلاد تضج في العشيّات بثُغاء الشياه، ورُغاء الابل، وصهيل الخيل، وكان الرجل يمشي من «أبو حمد» إلى «أبو دليق»، فلا يخشى إلّا الله والذئب على غنمه. لكن انظر إليهم الآن يا أبا تمام، في هذه الصالة الرثَّة، في هذا المطار القميء، في هذه المدينة المهملة، في هذا الوطن الحبيب اللعين.

هذه المرأة الوسيمة من عرب البَطّاحين دون شك، وهذه الشلوخ الأفقية على الخدود الحنطية، لا بد أنها «شايقية» من نوري أو تنْقَاسي، وهذا الرجل الأخضر، سواده زنجي وسِمْته عربي. وهذه المرأة، لونها مثل الذهب المُتْرَب، بجاويةٌ لا بد، من القوم الذين امتطى المتنبي ناقة من نوقهم حين خرج هارباً من مصر:

ألا كـــلُّ مـــاشــيــةِ الخيْــزَلَــى
فــدى كــلِّ مــاشـيــة الــهــيْــذَبَــى

وكــلّ نَــجَــاةٍ بِــجَــاويــةٍ
خَــنُــوفٍ ومــا بــيَ حُــسْــنُ المشــى

انظر إليهم يا أبا تمام، ينتظرون الطائرات تحملهم إلى بلدان الخليج. الخروج. الهروب. الرحيل، إنهم ينتظرون، وأنا مثلهم أنتظر، ولكن الحزن الذي يلسع قلبي، وكأنما ينبع من هذه اللوحة الباهتة أمامي، يخصّني وحدي، فأنا بعدُ كاتب، وهذه الأحزان هي زادي وعُدَّتي، كما يتزود الأثرياء بحساباتهم في البنوك. لقد اختلط الحابل بالنابل، وأصبح النازح كالمقيم، والمقيم كالمسافر.

هل أنت قلت حقاً يا أبا تمام:
وحــبَّــب أوطــان الــرجــال إلــيــهــمــو
مــآربُ قــضــاهــا الــشــبــابُ هــنــالــك

# ٣

الأربعاء ١٩٨٨/٩/٢١.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين.
الساعة: ٤,٥٠ مساء.

نعم. لا بد أن يكون البيت لأبي تمام، فما لابن الرومي وذلك؟ إنه شاعر كبير لا شك، أحسن القول في وصف المغنيات ومجالس الطرب، وولّد معاني عجيبة عن الآلات والأصوات. وهل مثل شِعر العرب في الحنين إلى الأوطان؟ وقد قال أخو بني حَنِيفَة:

ألا هل إلى شمّ الخُزامَى ونظرةٍ
إلى قَرْقَرَى قبل الممات سبيلُ
فأشربَ من ماء الحُجَيلاءِ شربةً
يداوَى بها قبل الممات عليلُ

فيا أَثَلاتِ القاع قلبي موكَّلٌ
بكنّ وجدوى خيرِكُنَّ قليلُ
ويا أَثَلاتِ القاع قد مَلّ صحبتي
مسيري فهل في ظلكُنَّ مقيلُ
أريد انحداراً نحوها فيردُّني
ويمنعني دينٌ عليَّ ثقيلُ
أحدِّث نفسي عنكِ إذ لستُ راجعاً
إليكِ، فحزني في الفؤاد دخيلُ

وقد رووا أن عبد الملك بن مروان، وقد كان ملكاً عالماً بالشعر محباً له، بكى لما سمع هذه الأبيات، فأرسل إلى الشاعر مالاً يقضي دينه ويرده إلى أهله، فلما جاء الرسول وجد الشاعر قد مات.

وأنت أيها المسكين، تجلس كأنما منذ قرون وكأنك سوف تظل جالساً إلى الأبد، في هذا المكان الآهل المهجور، في هذه المدينة الجميلة المهملة، في هذا الوطن الغني الفقير. ينتظرون طائرات الخليج. هذان عريسان جديدان يجلسان خجلين في بركة من العطر والحنّاء، والعروس في وجهها ذلك الخفر القديم. وهذه الطفلة ألبسوها «فستاناً» أبيض مزركش الأطراف، لا يليق بها ولا يليق بهذا المكان.

وهذا رجل مريض مسافر للعلاج، ربما في الرياض أو في الدوحة. وهذه المرأة المسنّة، بين السبعين والثمانين، وجهها جميل يذكرك بوجوه أحببتها في الزمان القديم، وربما من نواحي رُفَاعَة أو الكاملين، ساكنة وادعة مطمئنة. ما الذي أخرجها من حِمَاها وأجْلاها عن مرابعها؟ وهذا الشاب سمته سمت ضابط في الجيش، ربما أرسلوه في بعثات عسكرية إلى أميركا وبريطانيا وموسكو. ثم أخرجوه في

حركة من حركات التطهير الكثيرة. قد ينتهي به الأمر أن يعمل حارساً في محل تجاري في دبي. وهذا الشاب واضح أنه من هذه الطبقة الجديدة التي وُلدت وربَت مع «ثورة» أيار/ مايو. الله أعلم يُهرِّب ماذا، أو يبيع ويشتري ماذا. يريد أن يغتني بأي وسيلة. ثم يفعل ماذا؟ وهذا شاب يافع، تخرّج لتوه من جامعة الخرطوم. درس الزراعة. يكون محظوظاً لو وجد عملاً كتابياً في شركة مقاولات في عَجْمان. إنهم ينتظرون وأنت مثلهم تنتظر. وتسأل نفسك، ما الفرق بين هذا الحشد في هذا المطار، وبين جمع من أهل الشام؟ في أولئك حركة وتوتر وتدَافُع. وطّنوا أنفسهم على الاغتراب منذ زمن، وهم أهل حياة ومطلب عيش، ينظرون إلى أمام، إلى حيث يقصدون. أما هؤلاء ففي حركتهم بطء وتراخٍ، ينظرون إلى الخلف، تشدهم إلى مواطنهم، من حيث خرجوا، قيود لا فكاك منها. تحسبهم كسالى، وما هم بكسالى. لكنهم لا يعملون للعمل في حد ذاته. يعملون حين تستثار هممهم، نخوةً أو حَمِيَّةً أو غيرة.

لذلك هَبُّوا في تشرين الأول/أكتوبر وهبّوا في نيسان/أبريل يعملون محبَّة، ويعملون جلْباً للمدح ودفْعاً للذَمّ، ولا يعملون لمجرد الطعام والشراب. حينئذٍ يعمل الواحد منهم عمل عشرة رجال، وقد يعمل بلا مقابل. فيهم، حين يكونون في أحسن حالاتهم، كبرياء وعذوبة وزهد. وتسأل نفسك وأنت تجلس في هذا المكان الذي تسلّخت حيطانه وتشقّقت جدرانه وبهُتَتْ ألوانه، تنظر إلى لوحة تقول لك بالفرنسية «Bon Voyage» وبالعربية «رحلة سعيدة» هل بقيت من ذلك بقيّة؟ أم أن صروف الزمان ونوائب الدهر، وغباء الحكّام، قد قضت عليه إلى غير رجعة، كما قضى النيل على العالم الذي حملْتَه في خيالك كلّ تلك الأعوام، وأخذتَ تسافر وتعود، تسافر وتعود، تبحث عنه، مثل جندي في جيش منهزم؟

# ٤

الأربعاء ٢١/٩/١٩٨٨.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين.
الساعة ٤,٥٠ مساء.

تجلس في هذا المطار الذي لم تعد تنزل فيه الطائرات إلّا لماماً، وإذا نزلت فلا تقوم إلّا بشق الأنفس، في هذه الصالة التي تسلَّخت حيطانها، وتشققت جدرانها، تنظر إلى الصور التي أخذها مصورو وزارة الإعلام. منذ كم ألف عام أُخذت هذه الصور، فكأنك تنظر إليها من وراء سحاب أو من تحت ماء عكر؟ مجموعة من رجال «الهدندوه» بشعورهم الكثّة وسراويلهم الطويلة وصديريّاتهم القصيرة يرقصون بالسيوف. نساء «الرشايدة» الجميلات في عيونهن بقية من بريق رغم تقادم العهد بالصورة. قافلة من «البقارة» ربما في نواحي «بابَنُوسه». رجل ضرير تلعب أصابعه بأوتار الطنبور. ذلكم النَّعام

آدم، العازف الموهوب. إنه من ديار قريبة من ديارك، ويغني ألحاناً قريبة إلى قلبك. رجال من جبال النوبة، على رؤوسهم قرون الثيران وفي أذرعهم الخرز، وفي أرجلهم الخشاخيش، يرقصون رقصة «الكمْبلا». نساء «الدِّنكا» الفارعات، صدورهن نصف عارية ونصف مغطّاة. غابة نخل في «نوري» هاماتها تنوء بأحمال السَّبيط، وساقيةٌ الله أعلم أين. لقد انقرضت السَّواقي وصمت غناؤها للنيل منذ سنين. وحيد القرن وفرس النهر، ووعل في «الدِّندر» وقطيع أفيال عند خط الاستواء. جبل البَرْكل وجبل مَرَّة وجبل تُوريت.

آه، أي وطن رائع يمكن أن يكون هذا الوطن، لو صدق العزم وطابت النفوس وقل الكلام وزاد العمل!

إعلان يحثك باللغة الإنجليزية واللغة العربية أن تجيء إلى «أرْكَويتْ». ماذا في أركويت؟ وكيف تصل إلى أركويت؟

الحبال التي ربطت هذه البلاد بالعالم شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، تقطعت حبلاً بعد حبل. وقفت سفن النيل وقطارات السكة الحديد والطائرات إلّا القليل، وآل هذا المطار كأنه محطة خلوية في صعيد مهجور. لم تبق إلّا قوافل الابل كما كان منذ قرون، وحافلات هالكة تشبُر طرقاً غير معبدة، تنوء وتقوم.

إنه أمر عسير.

**الطفلة التي زيَّنوها مثل وصيفة في عرس، جاءت وقبَّلتك بغتة، فانتبهتَ فرحاً، ونظرتَ إليها توزع قبلاتها كيف تشاء. شاب استعارك قلماً فأعرته، ورجل طلب «فكة» عشرة جنيهات فلم تجد**

له الفكة. رجل استكتبك رسالة فكتبتها له. منذ كم وأنت تكتب الرسائل لقوم لا يقرأون ولا يكتبون؟ وسألك واحد واثنان وثلاثة متى تقوم الطائرة؟ فقلت لا أدري. يأخذون متاعك ويختفون. لا أحد يُسأل ولا صحفٌ تُقرأ ولا ماء يشرب. وسوق الأشياء المعفاة من الضرائب، مثل قطعة من الأثاث الحديث في دار إنسان فقير. عطور «شانيل» وسجائر «مارلبورو» وربطات عنق «إيف سان لوران».

لماذا لا يبدأون بالأشياء الصغيرة لإنجاز الأحلام الكبيرة؟! كل واحد من هؤلاء الناس الأذكياء الأغبياء عنده «مشروع شامل» لإقامة مجتمع «فاضل» يدوم إلى الأبد. وما أدراه ما الأبد؟ ويقتلون أنفسهم ويقتل بعضهم بعضاً لتطْغَى أحلام على أحلام.

المرأة المسنّة الجميلةُ الوجه من نواحي رُفاعة أو الكاملين ابتسمت لك، كأنها تعرفك. نعم، إنها تعرفك، فقد أحببتها، إذاً أنت طفل يحبو، وإذا أنت صبي دون البلوغ. لهم الويل، كيف أجلوها عن حِمَاها، وقد آن لها أن تستريح؟

إنهم ينتظرون، وأنت مثلهم تنتظر، وحالك كما قال مجنون بني عامر:

كأنَّ فؤادي في مخالب طائر
إذا ذُكِرَتْ ليلى يشُدُّ به قبضا
كأَن فِجاجَ الأرض حلقةُ خاتَم
عليَّ فما تزداد طولاً ولا عرضا

تجلس، وفي خيالك ذلك العطر الذي لن ينضب ما دمت حياً. وهو

حب أودى قبلك بالتجاني يوسف بشير ومحمد المهدي المجذوب. ومثلك كثيرون. منهم صلاح أحمد إبراهيم في باريس، وسيد أحمد الحَرْدَلُّو في صنعاء، والفيتوري في الرباط، وإبراهيم الصلحي في الدوحة، وعبد الواحد يوسف في عَمَّان، وحسن أبشرْ الطيب في الكويت.

أن تنتمي إلى هذا الوطن البعيد المنال، ذلك أمر عسير. أن تكون سمعت زغاريد النساء في الأعراس، ورأيت انعكاسات الضوء على وجه النيل وقت الشروق ووقت الغروب. أن تتذكر مذاق تمر «القُنْدِيلْ» أول الموسم، ولبن البقر الغَريضْ، ورغوتُه معقودة عليه في «الحلاّبات»، ذلك أمر عسير.

وهؤلاء الزعماء النجباء، الأذكياء، الأغبياء، ألا يحبّون الوطن كما تحبه أنت؟
بلى.

إذاً لماذا يحبونه وكأنهم يكرهونه، ويسعون إلى إعماره وكأنهم مسخَّرون لخرابه؟

# ٥

الأربعاء، ١٩٨٨/٩/٢١.
مطار الخرطوم، صالة المغادرين
الساعة ٤,٥٠ مساء.

تنتظر، وفي خيالك ذلك النسيم الذي يلاحقك من وادي النيل، يحمل عطراً لن ينضب ما دمت حيّاً. والنيل منك على مرمى حجر. ألا تعلم؟ لكن كأنه في عالم آخر، أو كأنه ليس موجوداً البتة. «النيل بعيد». كما قال الشاعر. لا توجد ساعة في هذه المحطة، وساعتك وقفت بتأثير قوة غامضة تصيب الحركة بالشلل في هذا المكان، وكأنَّ الزمن فرسُ رِهَان، زلَّت به القدم، وهو يكاد يبلغ نهاية الشوط. عشر دقائق، عشر دقائق فقط، وتكتمل الساعة الخامسة. لكنها لن تكتمل، وسوف تظل هكذا إلى الأبد، معلقة بين التّمام والنقصان، تتوق إلى الكمال، ولا تكتمل. الحيطان المشقَّقة،

والألوان الباهتة، والصور العتيقة، والوجوه المتعبة الصابرة. الحلم ونصف الحلم واللّا حلم. الفعل ورد الفعل واللّا فعل. اختلطت الأشياء فكوَّنت عجيناً مطّاطاً لا مغزى له ولا ذات محدّدة. كأن الأشياء قد بدأت وانتهت، أو كأنها لم تبدأ بعد. المكان كذكرى مكان أو كحُلمٍ إلى مكان. والمدينةُ كلا مدينة. والوطن كلا وطن. السَّواقي وقفتْ منذ زمن وصمت غناؤها الحزين للنيل، ولكنها ما تزال تدور، يخرج منها ماء هو احتمال ماء، لا يسقي زرعاً ولا يدر ضرعاً. وسفن النيل وقطارات سكك الحديد توقّفت، ولكنها تجري، وسوف تظل تجري بين الساعة الرابعة إلّا عشر دقائق، والساعة الخامسة تماماً، وإلى الأبد، ولا تصل إلى غاياتها. الحرب اشتعلت وخمدت وبدأت ووقفت فهي تدور ولا تدور، فالقتلى هم القتلى، والجيوش هي الجيوش، والمطامح هي المطامح، والمزاعم هي المزاعم. هي ليست حرباً ولكنها ذكرى حرب أو احتمال حرب، شبَّت منذ أعوام، وشبَّت منذ قرون، وتشبّ الآن في مساحة طولها عشر دقائق وطولها الأبد. الزعماء السابقون والزعماء اللاحقون أضغاث أحلام، ذكريات زعامات.

احتمالات إمكانات، «لا صيرورة» واحدة ذات وجوه شتى في أزمنة غابرة هي اليوم وغداً. شمس لا تشرق ولا تغيب، بدرٌ ليس له تمام ولا مَحَاق، نهر يجري وليس له منبع ولا مصب. السراب في صحراء العَتْمور ماءٌ حقيقة، عبَّتْ منه إبل أبي العلاء المعري حتى ماتت من الرَّي. الزرع في حقول الجزيرة ينمو وأبداً لا يصل إلى درجة الحصاد. الأمطار تهطل والأنهار تفيض، ويعم الخير في هيئة مجاعة يموت فيها الناس من التخمة. الطائرة لن تقوم وسوف تقوم، وقد قامت بالفعل.

ما أروع هذه المدينة اللاّ مدينة في هذا الوطن الذي هو كذكرى وطن أو كحلم وطن. وقد سألك الشاعر، سألك أنت بالذات، دون خلق الله جميعاً:

أبكت تلكم الحمامة أم غنَّت على فرع غصنها الميّاد؟

يا سيدي فداك نفسي. لقد كنتَ كأنك لم تكن، أما الآن وقد صرت إلى العدم المحْض، فأنت ملء السمع والبصر. وقد حيَّرني سؤالك زماناً فما وجدت له إجابة إلّا الآن فقط، في هذه اللحظة التي كأنها الأبد.

إن الحمامة قد بكت وغنَّت فما بكت ولا غنَّت، لأن الغصن الذي حطّت عليه هو في وادٍ هو احتمال وادٍ في وطن هو حلم لوطن.

ألا، لا أرى مثلي أمْترَى اليوم في رسم
تغصُّ به عيني وينكره وهمي
أتت صورُ الأشياء بيني وبينه
فجهلي كلا جهلٍ وعلمي كلا علمِ

غفر الله للحسن بن هانيء، وغفر لك يا أبا العلاء وأنت تزْجر مطاياك في ذلك السراب الأبدي.

وأنت يا أبا تمام. أسأل الله أن ينزل فيوض الرحمة على قبرك بين العدوتين. فأنت قد قلت البيتين يقيناً، وذلك البيت إن لم تقله فكأنك قد قلته.

# ٦

في عام كذا وسبعين، أيام كنت مديراً لوزارة الإعلام القطرية، حلّت علينا صحافية إنجليزية، نحيلة الجسم، كأنها مصابة بالسل، متوترة مثل قطة مذعورة، عيناها عسليتان واسعتان، كان يمكن لو كان وجهها منبسطاً سمحاً، أن تكونا جميلتين. لكنهما لم تكونا كذلك، فقد كان في هيئة المرأة بأكملها شيء منفّر، سببه كما أدركت فيما بعد، ذلك الشبق الذي تراه في وجوه بعض الناس، أنهم يريدون أن يحققوا هدفاً غير شريف بأي وسيلة. ولأن العرب ناس كرماء، ودولة قطر كريمة فقد استقبلناها في المطار، واستضفناها في الهوتيل. ولأنني عشت بين ظهراني هؤلاء القوم ردحاً، فقد أدركت من أول لقاء لي معها، دون كبير جهد، أن تلك السيدة لم تجئ باحثة عن الحقيقة. لم تجئ لترى وتسمع وتفهم، فتنقل إلى قرائها الإنجليز صورة صادقة عن إنجازات الإنسان العربي في هذه البقعة من الأرض، وطموحاته ومقاصده كبقية خلق الله. بل على

النقيض، جاءت لتعطي المصداقية لصورة آثمة ظالمة كانت قد استقرت في ذهنها قبل أن تصل. فضربتُ حولها سياجاً كثيفاً ولم أدعها تقابل أحداً أو تكلم أحداً. خرجت من عندنا إلى دولة الإمارات ومن ثم إلى الكويت، وكانت قد زارت المملكة العربية السعودية قبل أن تصل إلينا. ثم ظهر كتابها فكان كما قدرت، أكاذيب وافتراءات، بل فحش في بعض الأحيان.

عجبت وأنا أقرأ الكتاب، وأتذكر ذلك الوجه الكئيب والذراعين النافرتي العروق، والجسم المتوتر الهزيل والسمت العصبي، إنها رسمت لنفسها صورة جذابة كأنها «صوفيا لورين» في زمانها، وأن الرجال حيثما حلّت، كانوا يفنون أنفسهم هياماً بها، وجرياً وراءها. وأن رجلاً ثرياً حملها في رحلة قصيرة إلى القاهرة في طائرته الخاصة، وعاد بها، حتى لا تضيع عليه ولو دقيقة واحدة من حديثها الشهي ومحياها البهي! إلى غير ذلك من هذه الأكاذيب الساذجة. والكتاب في مجمله يقول إن هذه المجتمعات مجتمعات مترفة فاسدة، وأن الحكّام متسلطون لا يعرفون كيف يدبرون أمور دولهم. وأن الرجال همج شبقون يسيل لعاب الواحد منهم لمنظر المرأة وخاصة إذا كانت أوروبية، وخاصة إذا كانت في فتنة مثل هذه الصحافية الفاضلة! بل إن الكتاب ذهب في الفحش والكذب أبعد من ذلك، وتخلص الكاتبة إلى أن هؤلاء العرب «الهمج» لا يستحقون الثروة التي هبطت عليهم. وهذا باختصار ما تقوله كل هذه الكتب والمقالات الصحافية التي يكتبها الأوروبيون والأمريكان عن العالم العربي، وخاصة عن منطقة الخليج. اللهم إلّا قلة قليلة يكتبها أناس شرفاء أمثال مايكل آدمز.

أغاظني الكتاب أيما إغاظة. ولكن سرّى عني قليلاً أنها لم تكتب

عن قطر إلّا صفحة واحدة كانت الافتراءات التي تضمنتها أخف كثيراً من غيرها.

وكما هو متوقع، صاحبت صدور الكتاب ضوضاء إعلامية مخطط لها في أوروبا، أذكى جذوتها لسوء الحظ العرب أنفسهم، كما يفعلون دائماً. وتحول هذا الكتاب التافه إلى شيء مرغوب، طبعت منه عشرات الآلاف من النسخ. وتحولت الكاتبة بين ليلة وأخرى من صحافية من الدرجة الثالثة أو الرابعة، إلى صحافية مشهورة تكتب عموداً أسبوعياً في واحدة من كبريات الصحف البريطانية، وتكتب في كبريات المجلات الأمريكية.

تلك الأيام أيضاً هبط علينا كاتب له بعض الشهرة قد كنت سمعت به، ولما قابلته خيّل لي أنه رجل جاد رزين، فأكرمنا وفادته وأحسنّا ضيافته. وسافر عنا، ونشر كتابه فإذا هو أكاذيب كبقية الأكاذيب، في زي مهذب أقل فحشاً من كتاب صاحبتنا تلك.

ثم جاءنا كاتب من صحيفة «الديلي تلغراف» اللئيمة. قلت له أول ما قابلته:

«نحن نعتقد أن صحيفتكم منحازة ضد العرب، وأنتم تكتبون عن العالم العربي إما عن جهل أو عن سوء قصد».

**فقال لي:**
**«لهذا أنا جئت لأصلح الصورة، فأنا لست من نوع الكتّاب الذين تتحدث عنهم».**

والحقّ أنني خدعت في الرجل، فقد بدا لي مهذباً غاية التهذيب عنده رغبة صادقة، كما خيّل لي، ليفهم، وليرى الأمور على حقيقتها. وكان إنجليزياً قحّاً. له شارب مثل شوارب ضباط الجيش، يتكلم بلهجة أكسفورديه خالصة. فساعد كل ذلك على تضليلي، لذلك أكرمت مثواه أكثر من المعتاد. وأنفقت عليه من زمني وقتاً.

ثم رحل الرجل عنا، وظهر كتابه، فإذا الكذب نفسه، وإذا البذاءة نفسها.

# ٧

حلَّ علينا في تلك الأيام أيضاً، جيش من الصحافيين الإنجليز، رجالاً ونساء، كانوا يرافقون الملكة في جولتها في بلدان الخليج، دعوتهم إلى داري، كما كنت أفعل مع الصحافيين الأوروبيين خاصة، وأقول لعلني أصحح بعض الأفكار الخاطئة، لعلني أبذر في أذهانهم بعض الحقائق، لعلني أستطيع أن أوجه أنظارهم إلى الأمور الجوهرية في حياة الناس وإنجازات الدولة، وأصرفها عن التوافه التي أعلم أنهم مشغولون بها. وجدتهم مجموعة من الهمج حقاً، باستثناء قلة منهم. كانوا ساخطين على كل شيء، وكانوا يحتقرون ملكتهم ويسمونها «برِنْدا». ولا أعلم لماذا اختاروا لها هذا الاسم، ولكنه اسم يوحي بالخادمات في حانات «سوهو» ومقاهي «كامْدِنْ تَاوُنْ». وكانت بينهم صحافية تجيد المحاكاة، فمضت تقلد الملكة ووصيفتها، وكأن الوصيفة ناظرة مدرسة والملكة تلميذة صغيرة. فإذا ارتدت الملكة ثوباً لمناسبة ما، تقول الوصيفة بصوت حازم كمن يخاطب طفلة:

«برندا، إنزعي هذا الثوب فوراً إنه لا يناسبك».

فتقول الملكة بصوت خافت كسير:
«أنا آسفة يا ليدي هَسِّي».

ثم تجرب ثوباً آخر، فتقول الوصيفة غاضبة:
«برندا. كم مرة نبهتك إلى أن اللون الأزرق لا يناسب لون بشرتك، اخلعيه حالاً».

وتظل الملكة المسكينة تجرّب الثياب، ثوباً بعد ثوب، والوصيفة القاسية لا ترضى على أي منها. وأخيراً تجهش الملكة بالبكاء مثل طفلة:

«ماذا أفعل يا ليدي هسِّي؟ إنني لا أستطيع حضور حفل العشاء، فليس عندي ثوب مناسب».

تصرخ الوصيفة:
«برندا. كُفّي عن البكاء فوراً وإلّا ضربتك على مؤخرتك. تذكري أنك لم تعودي طفلة. أنت ملكة بريطانيا العظمى».

وظلت الصحافية التي تمثل دور الملكة تبكي بحرقة، وظل زملاؤها يضحكون بمتعة، وقلت لنفسي:

«لا حول ولا قوة إلّا بالله. أي خير يرجى من هؤلاء الرعاع إذا كان هذا حالهم مع ملكتهم؟».

وعجبت أيضاً، فقد كنت قد رأيت الملكة عن قرب مرتين. مرة حين طاف بها وزير الإعلام في جولة في متحف قطر الوطني. وهو متحف جميل حقاً، فلم يكن غريباً أن الملكة وزوجهاَ دوق أدنبره أعجبا بما رأيا. رأيتها سيدة مهذبة بسيطة بشوشة، تسمع باهتمام وتسأل أسئلة ذكية. وكان واضحاً أن تربيتها جعلت تلك الشمائل فيها فطرة وليس تكلفاً. وقد قال لي زميل في الوزارة:

«هذه السيدة لطيفة إلى حد أنك تود أن تدعوها للعشاء مع عائلتك وتحس أنها سوف تقبل الدعوة».

ثم رأيتها في حفل الاستقبال الذي أقامته في «اليخت» الملكي «بريتانيا» وكانت في ذلك المساء ترتدي ثوباً جميلاً بسيطاً لا أحسب أن وصيفتها اعترضت عليه، وكانت هي وزوجها يتنقلان بين المدعوين ويتبسطان معهم في الحديث. وكانت الملكة تقول لكل شخص تلقاه عبارة أو عبارتين تعنيان له شيئاً، وتعلقان بذاكرته. كنت ليلتها أرتدي جلابية سودانية وعمامة وعباءة، وكانت الملكة قد زارت السودان. قالت لي:
«هذا ليس زياً قطرياً».

قلت لها «لا».
فقالت:
«هذا زي سوداني، أليس كذلك؟ بالتأكيد أنت سوداني».

لم تكن الجملة في حد ذاتها مهمة، ولكنها أسعدتني، فقد بذلت السيدة جهداً، وكانت هي أسعد مني لأن ظنها قد صدق، وقلت لنفسي «والله هذه الملكة سيدة لطيفة بنت حلال». ولم لا؟ فالمرء لا

يكره الناس ضربة لازب.

بعض الناس يلومونني أن لي صديقاً أو صديقين من الأثرياء. وهم أناس صادقتهم منذ أمد، قبل أن يكونوا أثرياء، فهل أتركهم لأن الله سبحانه وتعالى أسبغ عليهم من فضله، وأعطاهم مالاً هم مستخلفون فيه؟ أليس ذلك كأن يكون لك صديق ثري. فإذا افتقر قلبت له ظهر المجَنّ؟

منذ أشهر، والشيء بالشيء يذكر، لقيت شاباً في ندوة في الكويت، فقال لي:

«يقال إنك توقفت عن الكتابة لسببين».

«ما هو السبب الأول؟».

«يقال إنك انحرفت في التديّن واستحوذتْ عليك الجماعات الدينية».

ضحكت لأنني أعلم كم أنا مقصّر في جنب الله، وأن بعض الناس يقولون إنني ملحد أو حتى شيوعي.

قلت له:

«يا ابن أخي، أنا لا أفعل أكثر من أنني أصلي صلاة الجمعة كسائر المسلمين، وكثيراً ما تفوتني صلاة الفجر في وقتها. ها. والسبب الثاني؟».

«يقولون إنك تصادق الأثرياء والوجهاء».

قلت له:

«يا بُنَيْ. صحيح أن لي صديقاً أو صديقين يقال إنهم أثرياء. ووالله ما أدري مقدار ثرائهم، وهو أمر لا يعنيني في كثير أو قليل. وهو ليس أكثر من صفة تعلق بالإنسان، كأن يكون نحيلاً أو بديناً أو أحمر أو أسود. وأما الوجهاء فقد قابلت منهم عدداً ولكن لا أذكر لك صديقاً واحداً بينهم. ولكن دعك من هذا. قل لي بالله كيف تراني؟ هل أبدو لك كأني جليسُ أثرياء ووجهاء، أم أنك ترى رجلاً أمّا إذا الشمس عارضتْ فيضْحى وأما بالعشِيِّ فيخْصر؟».

قلت له ذلك لأنه شاعر.

# ٨

كُنّا نؤمِّل أن يستغل أولئك الصحافيون مناسبة زيارة ملكتهم إلى قطر، فينظروا إلى مجتمع ليس معروفاً لقُرائهم بعيون مفتوحة، إن لم يكن فيها عطف، فليس فيها كراهية. ها هنا أناس يعيشون مثلهم تحت الشمس على سطح هذا الكوكب الصغير، الذي برَّ به الخالق سبحانه عباده جميعاً، على اختلاف ألوانهم وأديانهم ومذاهبهم ومشاربهم. أناس يحلمون مثلهم ويسعدون ويشقون مثلهم، ويولدون ويموتون مثلهم. لهم طريقتهم الخاصة في العيش، ونظرتهم المميَّزة إلى الكون، لو فعلوا ذلك لعلهم كانوا يزحزحون ولو قليلاً، ما لبس عقول قُرّائهم من خَطَل وجهل. وماذا يضير قارئ الـ«ديلي ميل» أو الـ «ديلي إكسبرس» أو الـ«تلغراف» أن يقرأ ولو مرة واحدة شيئاً مفيداً عن عالم بعيد مجهول، من هذه العوالم البشرية المتنوعة المتعددة؟ أليس ذلك خيراً له من أخبار الجرائم والفضائح والتفاهات التي تطغى على صحفهم؟

لكن لسوء الحظ، أمعن هؤلاء الصحافيون إلّا القليلين منهم، في ضلالهم القديم. فحين اقترب «يخت» الملكة من الميناء، وكان الأمير والوزراء ورجال الدولة ينتظرونها على الرصيف، انشغل الصحافيون والمصورون برجل وامرأة أوروبيين في قارب شراعي صغير. وقد زعموا بعد ذلك في مقالاتهم أنهما كانا يشرفان على الغرق، ولم يكن ذلك صحيحاً. وفي الوليمة التي أقامها الأمير للملكة في خيمة في البرّ، سلّط الصحافيون كمراتهم وسلّط مصورو التلفزيون آلاتهم على ذبابة حطّت على وجه الملكة. وتسلَّل فريق منهم إلى المطابخ وراء الخيمة، حيث يُعدُّ الطعام، والتقطوا صوراً يُقصد منها الإساءة. ولما راجعناهم في ذلك احتجُّوا لنا بحرية الصحافة والإذاعة وما شابه وهي شِنْشِنَة قديمة عرفناها عنهم. لم يلتفتوا إلى مظاهر العمران الواضحة، ولا إلى الخضرة التي انبثقت في هذا المكان اليباب، ولا إلى مصانع السِّماد وتسييل الغاز وصهر الحديد وتحلية المياه. قالوا إن هذه أشياء مملَّة لا تثير خيال القارئ الإنجليزي الذي يُؤثر مواضيع ذات «بعد إنساني». وأقول لهم:

ولكن أي بعد إنساني في ذبابة حطّت على وجه الملكة؟ وأي بعد إنساني في صور الطعام يوضع في الأواني؟ وهل من الذوق أن تدعو إنساناً إلى دارك وتولم له، فيصر على تفحُّص المطبخ والتأكد أن الطعام يُعَدُّ بطريقة «هايْجينيّة» كما تقولون؟

وأسوأ من هذا كله، أنهم حيثما حلّوا في تلك الرحلة، كانوا يحسبون أثمان الهدايا التي يقدمها رؤساء الدول المضيفة إلى الملكة، ويبالغون في الحساب، ليوهموا قُرّاءهم أن هؤلاء القوم الأثرياء مبذِّرون لا يدرون ماذا يفعلون بأموالهم. وهم بذلك يتجاهلون الحكمة الإنجليزية القائلة «لا تتفحص فم الحصان الذي يُهدى لك».

قال لي فؤاد جميعي، وهو صديقي منذ عهدي بهيئة الإذاعة البريطانية، وقد رافق هؤلاء الرعاع مندوباً عن القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية، وهو رجل محب للإنجليز، تعلم في جامعاتهم، وتزوج منهم، ويجيد لغتهم:

«إنني لم أكن أدرك قبل هذه الرحلة، إلى أي درجة يزوّر هؤلاء الصحافيون الإنجليز الحقائق. لقد كنت أشهد الأحداث معهم، ثم أقرأ ما يكتبونه في صحفهم، فإذا هي مخالفة تماماً لما رأينا وسمعنا».

# ٩

أذكر جيداً ذلك الأمريكي العصبي العابس الوجه. كانت ملامحه يهودية لا مراء فيها، وكانت النظارة السميكة على عينيه توحي لك بأنه ضيق الصدر. وهو إحساس اكتشفت فيما بعد أنه إحساس خاطئ. لا أنكر أنني نفرت منه أول ما قابلته، ليس لأنه يهودي، فأنا لا أحمل مشاعر من هذا النوع، فقد عرفت يهوداً فضلاء ويهوداً أراذل. لا، لم يكن ذلك، ولكن لأنه بدا لي متغطرساً متعجرفاً. وربما كان معه بعض الحق أن يعتزّ بنفسه، فقد كان جُوزِفْ كَرَافْتْ صحافياً أمريكياً واسع النفوذ، يكتب عموداً في صحيفة الـ«هيرالد تربيون»، وتنشره في الوقت نفسه نحو من عشرين صحيفة في كل أنحاء الولايات المتحدة، كان على صلة وثيقة بصنّاع القرار، وكان مع ذلك معروفاً بحماسته للصهيونية ولدولة إسرائيل وعدائه للعرب. وقد رأى السفراء العرب في واشنطن، في لحظة من لحظات الإلهام، أن يرسلوه إلى العالم العربي، ولم يكن قد زاره من قبل، ليقابل

الناس، ويتعرف على أنماط الحياة، ويرى مظاهر التقدم والعمران، فلعله يغيّر من أفكاره، أو على الأقل يخفف من حدة عدائه للعرب. وكانت دولة قطر أول دولة يزورها. كان السفير الأمريكي متوتراً جداً متخوفاً من تلك الزيارة. ولأن طائرة مستر كرافت وصلت قبل موعدها، فلا السفير الأمريكي ولا أنا استطعنا أن نكون في استقباله في المطار. ذهبت إليه في الجناح الذي حجزناه له في فندق الخليج، فوجدته ثائراً محمّر الوجه. أول ما دخلت وعرّفته بنفسي صرخ: «اسمع. أنا رجل مهم جداً. ليس عندي وقت أضيعه. أريد «صيداً ضخماً» I want to shoot Big. أريد أن أقابل حالاً الأمير، (وكان ينطقها «أيمير») ووزير الخارجية. ووزير المالية».

قلت له «كل هذا سوف يحدث. لكن الوقت متأخر الآن. خذ راحتك وسوف أمرّ عليك في المساء، وسوف تبدأ مقابلاتك صباح غد».

ولما عدت إليه في المساء، وجدته كما تركته، متوتراً متوجّساً. قال لي أثناء الحديث، دون أي مناسبة:
«هل تعلم أنني يهودي؟».

«طبعاً أنا أعرف أنك يهودي، فأنا أقرأ مقالاتك في الـ«هيرالد تربيون»».

لم يبدُ عليه أنه استوعب قولي، وكنت قد بدأت أستمْرِئُ صحبتي له، قلت له:
«أنا مدعو هذا المساء للعشاء في دار الملحق التجاري البريطاني. أقترح أن تأتي معي فسوف تقابل عدداً من الناس وتستمع إلى آراء مفيدة».

قَبِلَ اقتراحي على مضض، وقدَّرت أنه اعتبر أن في ذلك تقليلاً من قيمته، أن يبدأ نشاطه الاجتماعي في الدوحة، بدعوة من ملحق تجاري لا أكثر، وليس بدعوة من سفير أو وزير. لكنني كنت أعلم أن تلك الأمسية في دار الملحق التجاري البريطاني، سوف تحدث قدراً ليس قليلاً من الفوضى في عقل مستر جوزف كرافت. كان «ديفيد رايتْ» شاباً ودوداً مستنيراً، وكانت تجمعني به صلة حسنة، لذلك كنت أعلم يقيناً أن ميله للعرب لم يكن من قبيل النفاق الدبلوماسي، ولكنه كان عن قناعة حقيقية لديه.

فتحت لمستر جوزف كرافت باب السيارة، وانحنيت له بطريقة مبالغ فيها، وقلت له:

«تفضل يا مستر كرافت، فأنت رجل مهم جداً».

نظر إليَّ شزراً ولم يقل شيئاً، وكنت قد أخذت أتمتع أكثر بصحبتي لذلك الإنسان العجيب. وفي الطريق إلى دار مستر «ديفيد رايت» قطعت عليه صمته بغتة، فقلت له:

«لعلك ظننت أننا سوف نرجمك بالحجارة أو نعلقك من فرع شجرة لأنك يهودي».

لم يجبني، لكنني كنت متأكداً أن عبارتي قد أحدثت بلبلة كبيرة لديه.

«اسمع يا مستر كرافت، كونك يهودياً.. هذه حقيقة ليست «مدهشة» بالنسبة لنا».

نظر إليَّ وفتح فاه، ولكنه لم يقل شيئاً.

ولما وصلنا إلى دار «ديفيد رايت» أسرعت بالنزول قبله، وفتحت له باب السيارة بالطريقة نفسها، وبالعبارة نفسها:
«تفضل يا مستر كرافت فأنت رجل مهم جداً».

لكن سرعان ما طغى دفء استقبال مستر «ديفيد رايت» لنا، على أي اشمئزاز قد يكون خطر لمستر كرافت، فقد كان ديفيد رايت إنساناً عفوياً ليس في طبعه التخطيط المأثور عن الإنجليز، وجدنا بالفعل، خليطاً من الناس، عرباً وأوروبيين. واتخذ الحديث طرقاً متشعبة، من السياسة إلى الأدب إلى الفن إلى التاريخ. وكنت معنياً طوال السهرة بوقع كل ذلك على صاحبي مستر جوزف كرافت، فأرى وجهه يرْبدُّ أحياناً وينبسط أحياناً، لكنه ظل صامتاً لا يفصح عما يختلج في صدره. ولما عدت به إلى فندق الخليج، قلت له:
«أرجو ألا تكون وجدت هذه الأمسية مضيعة لوقتك الثمين».

نظر إليَّ برهة خلال نظارتيه السميكتين، وخُيّل إليَّ أن طيف ابتسامة حَوَّم حول عينيه، كأنه أدرك، أنه إن كان جاء يطلب صيداً ضخماً، فقد صادف صياداً له أحابيل من نوع لم يخطر له على بال.

في الصباح رافقته لمقابلة وزير الإعلام، فاستقبله الوزير بلطفه المعهود وابتسامته المضيئة. ولا بد أن مستر كرافت عجب أصلاً أن شاباً عربياً يلبس الغطرة والعقال، يمكن أن يتحدث اللغة الإنجليزية بتلك الطلاقة، ويُقلِّب الأفكار بتلك المهارة. ثم مضينا في زياراتنا التي تُوِّجت بمقابلة سمو الأمير. ولما خرجنا من عنده نظرت إلى صاحبي

فإذا هو، لأول مرة، فرحاً، منفعلاً من شدة الفرح. وإذا ذلك الوجه المتجهم بأساريره المشدودة، كأنه وجهٌ لإنسان آخر، كنت أعلم أن الذي أَلَمَّ به قد حدث لأنه قد وجد «صيداً ضخماً» على حد قوله، قال لي وهو على تلك الحالة:
«هِييْ.. هذا الأمير إنسان لطيف، هؤلاء الناس لا بأس بهم. لا بأس بهم أبداً».

قلت أعكس عليه الآية هذه المرة، فنظرت إليه كما كان ينظر إليَّ طوال مرافقتي له، ولم أقل شيئاً.

ثم جمعته بمستر «هَوارْد» الذي كان يزور الدوحة في الفترة نفسها، ويقيم هو أيضاً في فندق الخليج. كان مستر «هوارد» أمريكياً من الولايات الجنوبية. شديد العداء للصهيونية ولإسرائيل ولليهود على وجه العموم، وقد أنتج فيلماً عن احتلال إسرائيل لمدينة القنيطرة. وسرعان ما شبَّت بين الرجلين حرب كلامية لا هوادة فيها، وجلست بينهما، لا أشارك في الجدل، ولكنني أستمع وأضحك. أمريكي يكره الصهيونية واليهود، وأمريكي يهودي متحمس للصهيونية، وكأنهما في حلبة ملاكمة. ورأيت صاحبي مستر جوزف كرافت ينوء تحت وابل اللكمات التي وجهها له مستر «هوارد» فقد كان هذا ملاكماً شرساً، يضرب كيفما اتفق، ويضرب بلا شفقة.

ولما ودّعت مستر جوزف كرافت في المطار أحسست أنه يتركنا وهو في حيرة عظيمة من أمره. كان وجهه وهو يغادر الدوحة مختلفاً عن الوجه الذي جاء به. وتابعت مقالاته في صحيفة الـ«هيرالد تربيون» مدة بعد تلك الرحلة، فلم أجد أنه ذكر زيارته

بالخير أو بالشر وإن كنت لاحظت أن حماسته للصهيونية قد فترت بدرجة نسبية. ثم وأنا في باريس قرأت نبأ وفاته. تذكرت صحبتي له في الدوحة، واللحظات الممتعة التي أتاحها لي من معابثتي إيّاه.

ولا أخفي عليكم أنني شعرت بشيء من الحزن.

حين أعدم الرئيس السابق جعفر محمد نميري، الرجل الهرم محمود محمد طه رحمه الله، كلمتني «باربرا براي» في الدوحة من باريس، آخر الليل. كان صوتها على التلفون غاضباً حاداً، أقرب إلى الصراخ، وذلك أمر لم أعهده منها، فهي عادة هادئة رقيقة مهذبة. قالت لي: «ألا تنوي أن تفعل شيئاً؟».

«أفعل شيئاً بخصوص ماذا؟».

«ألم تسمع الأخبار؟ ألم تسمع بأن رئيسكم الهمجي قد أعدم رجلاً في الثمانين من عمره؟ إنه أمر مخجل حقاً، من يصدق أن هذا يحدث في هذا العصر؟».

صمتّ وتركتها تسترسل فماذا أقول لها. لم تهدأ ثائرتها بل إن

غضبها ازداد قوة وهي تمضي في الكلام. وحين يطول صمتي تقول لي بعنف:
«هل أنت هناك؟ هل تسمعني؟».

«نعم يا باربرا، أنا هنا وأسمعك جيداً».
«إذاً لماذا لا تفعل شيئاً؟».

قلت لها متضاحكاً لعلني أعيدها إلى هدوئها:
«الآن؟ في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟».

لم تستجب لمحاولتي، وقالت لي بصوت أكثر غضباً:
«إنني كنت أتحدث منذ لحظات مع البيت الأبيض في واشنطن. طلبت محادثة الرئيس ريجان. طبعاً أنكروا أنه موجود. كلمني أحد مساعديه. قلت له كل ما خطر على بالي. قالت له إن دم هذا الرجل معلّق في رقبتكم».

سألتها متغابياً:
«ولكن ما دخل الرئيس ريجان بمقتل محمود طه؟».

«لا تكن غبياً. هل تظن أنهم ما كانوا يستطيعون إنقاذه لو أرادوا؟ هل يستطيع نميري أن يرفض لهم طلباً؟ أليسوا هم الذين جاءوا به وهم الذين يساعدونه على البقاء في الحكم؟».

«وماذا قال لك مساعد الرئيس؟».
«ماذا يمكن أن يقول لي أحد هؤلاء الشبان التافهين الذين يسمونهم تجاوزاً مساعدي رئيس؟ كل عملهم أنهم يحملون حقائبه

ويتراكضون حوله. لم يظهر عليه أنه فهم ما أقول وأظنه لا يعلم أين السودان ومن هو نميري أو محمود محمد طه. أخذ اسمي وعنواني وتلفوني ووعد بأن ينقل احتجاجي للرئيس. بعد أن انتهت المكالمة طلبتك فوراً».

قلت لها متضاحكاً مرة أخرى:
«إنه لشرف عظيم أن تضعيني في كفة مع رئيس أكبر دولة في العالم. أنا الموظف الغلبان في منظمة اليونسكو».

تحول سخطها من الرئيس الأميركي إلى اليونسكو، فهي تكره المؤسسات البيرقراطية من حيث هي. فقد استقالت من هيئة الإذاعة البريطانية وتعاونت فترة قصيرة مع منظمة اليونسكو ثم رفضت التعامل معها:
«متى تستقيل من هذه المنظمة الجوفاء وتتفرغ لما هو أهم؟».

«وما هو الأهم؟».
«ألا تعرف إلى الآن ما هو الأهم؟».

بلى، أنا أعرف ما هو الأهم في نظر «باربرا براي» وفي نظري أنا أيضاً. ولكن من يطعم الزوجة والعيال، ويدفع أقساط المدارس والجامعات؟ كل هذه الأشياء الصغيرة، أم الكبيرة، التي تكبل الإنسان بقيود يشتد وثاقها يوماً بعد يوم، وتجعله يصمت حين يجب عليه أن يصرخ، ويذعن حين يتحتم عليه أن يرفض. «باربرا براي» لا تأبه لذلك. لقد استقالت من هيئة الإذاعة البريطانية منذ ثلاثين عاماً وهي في قمة النجاح، وليس عندها مصدر دخل. غامرت وحملت طفلتيها وجاءت إلى باريس. استأجرت شقة

صغيرة في الحي اللاتيني قريباً من «بوليفار سان ميشيل» وعلى مرمى حجر من نهر الـ «سين»، ما تزال تعيش فيها إلى اليوم. رفضت بتاتاً أن تشتري بيتاً أو شقة بالأقساط كما يفعل كل الناس. «منسي» وأنا حاولنا إقناعها ولكنها قالت إنها لا تحب أن تمتلك أي شيء، وتحب أن تفارق الدنيا وليس وراءها شيء. أخذت تعيش من كتاباتها في النقد للصحف الفرنسية والإنجليزية، فهي ناقدة متمكنة لها نفوذ وصيت، وتترجم من الفرنسية إلى الإنجليزية، وكثيرون يعتبرونها أحسن مترجم في هذا المجال. وقد ترجمت جميع روايات الكاتبة الفرنسية الشهيرة «مارجريت دورا» لا حباً في المال ولكن لأن الكاتبة صديقتها. وحين يضيق بها الحال، تكتب «سيناريوهات» للسينما، فهي تحتقر السينما، ولا تعتبرها شكلاً فنياً محترماً. وكان بوسعها أن تجمع مالاً وفيراً من كل هذا الجهد، ولكنها لا تحسن تدبير المال ولا تأبه له، وتقع دائماً فريسة لطمع الناشرين وخداعهم.

دائماً تجعلني أحس بالخجل من نفسي، هذه السيدة العجيبة. لا تنتمي لحزب، وليس عندها أي مطمح، وتعطي الحياة أكثر ما تأخذ منها. كأنها تحمل على عاتقها هموم الإنسانية بأسرها، إذا وقع زلزال في الجزائر أو فيضان في السودان أو مجاعة في إثيوبيا، يعصر الألم قلبها، كأنها مسؤولة شخصياً عما حدث. ولا تكتفي بذلك بل تجمع التوقيعات وترسل الاحتجاجات. تؤيد كفاح الشعب الفلسطيني وتكره النظام العنصري في جنوب أفريقيا، وتمقت التسلط والقهر حيثما يكون. وأنا لا أشك أنها تحس مأساة جنوب السودان أكثر مما يحسها جون قرنق وبقية هؤلاء الزعماء النجباء، الأذكياء الأغبياء. «باربرا براي» تؤمن كما جاء في القرآن الكريم أن من قتل نفساً واحدة بغير حق، فكأنما قتل الناس جميعاً، وهؤلاء

عندهم أن يموت مليون، لا شيء، في سبيل أن يصبح الواحد منهم زعيماً.

في تلك الليلة شعرت بخجل عميق. قلت لها، وأنا أعلم أن كلامي أعرج وحجتي جوفاء:
«أنت تعلمين أننا حين ندخل اليونسكو، كما في المنظمات الدولية، نقسم يميناً أن نكون محايدين ولا نتدخل في شؤون الدول الأعضاء في المنظمة».

«كلام فارغ».

أطارت النوم من عيني، وقضيت الليل مسهداً أضرب أخماساً في أسداس.. وذلك أضعف الإيمان.

# ١١

دخل الإنجليز بلاد السودان متردِّدين، يقدِّمون رِجلاً ويؤخرون، فقد كان المدّ الاستعماري قد انحسر، والقرن التاسع عشر يوشك أن ينطوي. وكان رئيس وزرائهم، مستر قلادستون، اسكتلندياً تقيّاً له ضمير يحاسبه كل ليلة حين يأوي إلى فراشه. لم يكن استعمارياً على نهج المستعمرين. قال لهم إن الثورة المهديَّة حركة وطنية مشروعة لشعب يطلب الحرية ويريد أن يزيح عن كاهله نير حكم أجنبي غشوم. وله قولة تبدو غريبة بمقاييس ذلك الزمان، بل حتى بمقاييس زماننا هذا. قال «هذه الجزر، هذه الأرض التي نقف عليها، ليست لنا، ولا هي لأوروبا، ولكنها ملك للإنسانية بأسرها».

لذلك ظل يقاوم إرسال جيش لفتح السودان، وكان بين كل حين وآخر، يبعث حملة صغيرة استجابة لضغط الرأي العام، لإنقاذ ذلك الرجل الغريب، جنرال غوردون.

الاستعمار مثل مسرحية من مسرحيات شيكسبير، حيث الخير والشر يختلطان بصورة مميزة، تزخر بشخصيات بين المأساة والكوميديا والعبَث، امتزجت أهواؤها وطموحاتها وغرابات سلوكها بالمطلب الاستعماري. وكان من أغرب هذه الشخصيات، جنرال غوردون، أو غوردون الصيني كما كانوا يسمونه.

ظل في الخرطوم في قصره المتواضع على ضفة النيل الأزرق، والخطوب تحيط به من كل جانب، مصرّاً على البقاء، يشرب الويسكي ويقرأ الإنجيل، ويكتب مذكراته، ويبعث رسائل مطوَّلة إلى أهله، لا يعلم إن كانت سوف تصلهم. لبث ينتظر، كأنه مسلوب الإرادة، ينتظر مصيره المحتوم. تقول كتب التاريخ إن الإمام المهدي أراد أن يستبقيه حيّاً، ليفادي به الزعيم المصري أحمد عرابي. لكن كان واضحاً، أن غوردون، وهو يقف على عتبة القصر، كأنه لا يسمع ولا يرى، كان يطلب الموت. ولا بد أن جند الإمام رأوا ذلك في عينيه، فلم يخيبوا ظنه.

الشعب البريطاني كان يبحث عن أبطال ويبحث عن شهداء فوجد في غوردون ضالته. حتى الملكة فكتوريا اهتزت لمقتل غوردون.

هاج الرأي العام وماج، وكان قلادستون الحكيم يظن غير ذلك، ولكنه لم يستطع مقاومة التيار، فأرسل جيشاً بقيادة استعماري لدود، هو كتْشْنر، لإخضاع السودان، والقضاء على الثورة المهدية، وأخذ الثأر لمقتل غوردون، وإفهام أولئك «الهمج المتوحشين» أنهم لا يستطيعون أن يعبثوا بهيبة التاج البريطاني، ويظنوا أنهم بمنْحى من العقاب. هكذا أراد الرأي العام في بريطانيا.

ولم يكن الأمر سهلاً، فقد أظهر أولئك «الهمج» في معركة «كرَري» أعلى أُم دُرْمان، ألواناً من البطولة الحقيقية والبسالة، لم تدرْ بخلد الجيش الغازي الذي جاء من وراء البحر، دون وجه حق، في ثوب مستعار وصفة منتحلة. إلّا أن الأمر استتب لهم، وأصبح كتشنر يعرف بـ «لوردِ كتشنر أفْ أم درمان»، كما تقول «لورنس أف أرابيا» و«كلايفْ أُف إنديا». وأصبحنا نتعلم في كتب المطالعة العربية التي ألَّفها «مستر سكوت» الإنجليزي أن كتشنر «فتح السودان ووضع فيه أساس العمران».

حكموا بلاد السودان المترامية الأطراف، بكثير من الحكمة وكثير من العدل، والحق يقال. وهذه «إشكاليّة» كما يحلو لإخواننا أن يقولوا. الاستعمار في أساسه، شرٌّ لا مراء فيه، ولكن هذا المستعمر يحكم بالعدل والقسطاس في إطار هذا الشر. فكيف يكون هذا؟ وتسأل العالم الخبير بتقلبات البلاد والعباد، ودواعي الخير والشر في أحوال الناس، أيهما أفضل؟ المستعمر الغاصب العادل؟ أم الحاكم الوطني» ابن البلد وهو ظلوم غشوم؟

ويقول العالم الخبير إن الإجابة واضحة، وقد صدق. ولكن الذين يذكرون عن الإنجليز من الشعب السوداني الكريم الصبور، كل ما نزلت بهم الخطوب، واحتوشتْهم النوب، خاصة في العهود الأخيرة، يقولون في حسرة «زمن الإنجليز يا حليله. زمن الإنجليز الله يطراهُ بالخْير». وحسبك هذا من يأس.

وكم كان عددهم، هؤلاء الإنجليز؟ تقول مائة ألف؟ تقول عشرة آلاف؟ تقول ألفاً؟ كلاًّ. كانوا أقل من خمسمائة على الأرجح حسبما تروي كتب التاريخ. تبصّر يا رعاك الله. هذا السودان،

بطوله وعرضه وسمائه وأرضه، وخيره وشرِّه، وجِنِّه وإنسه، حكمه أقل من خمسمائة من هؤلاء القبيل «الحمر» الذين جاءوا من وراء البحر. صحيح.. كانت تدعمهم جيوش غير مرئية، وضعوها في ضواحي العاصمة وفي الثغور البعيدة، وتسندهم «هيبة» الإمبراطورية البريطانية.. ومع ذلك!

ثم جاءت العهود «الوطنية» تَتْرى.. أحياناً برلمانات، وأحزاب، وأحياناً حكم عسكري صرف، وأحياناً حكم عسكري دكتاتوري، يلبس قناع الديموقراطية والاشتراكية، والعدالة الناجزة والرِّفاه المُرتقبْ. وتولوا بغصَّة كلهم منهم لا أرضاً قطعوا ولا ظهراً أبقوا.

واليوم يظللنا عهد جديد بظله، بعد انتفاضة رجب المباركة، وثورة أيار/ مايو الخالدة، وثورة تشرين الأول/ أكتوبر المظفرة. والنيل الحكيم الصبور ينظر ويتعجَّب، إخواننا هؤلاء قاموا بعد أن فكروا وقدروا، نعمل لكم «نظاماً فدرالياً». يعني، يا رعاك الله، الدولة الواحدة تتجزأ إلى دول، والحكومة الواحدة تتطاير حكومات. وبدلاً من برلمان ووزارة في الخرطوم، تكون عندنا برلمانات ووزارات في دارَفور وكردفان وأعالي النيل وبحر الغزال والجزيرة وكسلا والخرطوم وقروي ودُنْقُلا. انظر كم رئيساً ووزيراً سوف يُنيخون بكلكلهم على كاهل الشعب المسكين، فوق ما هو محتمل. يا سبحان الله. أما قلتم أن الشعب ليس مهيأً للديموقراطية البرلمانية؟ إذاً كيف يكون مهيأً لـ «الديموقراطية الفدرالية» وهي أكثر تعقيداً وأعظم خطراً؟

هذا أيضاً يصلح موضوعاً لمسرحية يكتبها شيكسبير العبقري، لو كان حيّاً. لقد كتب من قبل مسرحية عن ملك دانت له المملكة، وكان

رزقه يأتيه رغداً من حيث لا يحتسب. وفي لحظة من لحظات الاستهتار والثقة الزائدة بالنفس، قسّم المملكة بين بناته ظناً منه أنه يقضي الصيف مع هذه والشتاء مع هذه والربيع مع تلك، ويظل هو كما كان، ملكاً ميهمناً فوق الجميع. ولكن الأمور سارت على عكس ما قدَّر، وانتهى به الأمر طريداً شريداً، في العواصف والثلج والزمهرير، وحيداً إلّا من المهرج الذي كان يضحكه أيام العزّ.

قال المهرج للملك «يا أحمق».
فقال الملك غاضباً:
«يا ولد. تقول لي أحمق وأنا الملك؟».

فقال المهرج:
«لأنك أضعت الألقاب التي ولدت بها جميعاً ولم يبق لك إلّا هذا اللقب».

يقول نقاد شيكسبير إن عقدة هذه المسرحية، هي «الحمق»، وإذا شئت قلت «الجهالة».
آه!

هذا ونحن في «دلهي» صيف ثمانين وتسعمائة وألف، والليل يجمع أطرافه ويتكثَّف، والغناء الحزين يزيد القلب كمداً، وتلك الذكرى التي تلاحقني من وادي النيل تحمل عطراً لن ينضب ما دمت حيّاً. صاحبي «منسي» على أثري مثل صاحب الشَّهْرزُوْري، وصاحبه «دُرْقا» على أثره.

**«فدنونا من الطلول»... والطلول ليست في بلاد الهند، ولكنها في بلاد الشام غربي بعْلَبكْ!**

# ١٢

لما فاض الكيل وعيل الصبر، هبَّ شعب السودان الصبور، كما يفيض النيل، وتهب الأعاصير في صحراء العَتْمور. سقط النميري بعد زهاء سبعة عشر عاماً من حكم متقلِّب غريب الأطوار. ليس لأنه كان رجلاً شرّيراً. كان يظن أنه يُحسن صنعاً. كان سودانيّاً كسائر السودانيين. الذين يعرفونه يقولون إنه رجل وديع دمث خجول، وهو أمر يبدو غريباً في إنسان ضرب جزيرة «أبّا» بالقنابل وشنق عبد الخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ، وقتل صديقه الحميم الذي مكن له في الحكم، فاروق حمد الله، وقتل الرجل الشيخ محمود محمد طه. إنه حتماً لم يرد شيئاً من هذا أن يحدث، ولكن هذه الأمور تبدأ صغيرة ثم تكبر، وشيء يقود إلى شيء، فإذا بالرجل الوديع الخجول، يتحول إلى قاتل سفّاح.

الحجّاج بن يوسف كان يعلّم الصبية القرآن، وعبد الملك بن مروان

الذي أمر بضرب الكعبة الشريفة بالمنجنيق، كان رجلاً فقيهاً عالماً بالشعر. هذه الأمور ليست جديدة. إنها موجودة في كتب التاريخ وكتب الأدب، وموجودة في مسرحيات شيكسبير العبقري.

ويقولون إنه كريم شهم «أخو إخوان». وأنا رغم أنني لا أعرفه، أستطيع أن أصدّق هذا، فهو سوداني كسائر السودانيين. وهذه هي المأساة. كل هؤلاء الناس كرام فضلاء. كلهم رجال شرفاء، كما قال أنتوني في مسرحية يوليوس قيصر. ولو أن أخانا جعفر محمد النميري، فهو أخونا على أي حال، لم يُذْعن لذلك الإغراء الفتاك، إغراء المجد والخلود، ولم يستيقظ مبكراً في ذلك اليوم بالذات، ولم ينتزع الحكم من أهله، أو الذين خُيِّل لهم أنهم أهله، لعله كان ينتهي به الأمر بأن يصبح قائداً للجيش، ثم يذهب إلى التقاعد بالطرق العاديّة ويقضي بقية أيامه هانئاً قرير العين.

ينام ملء جفنيه لا تثقل ضميره كل تلك الدماء التي أراقها. وفي سبيل ماذا؟

في سبيل مطلب تافه، هو بميزان العدل الكوني، أقل خطراً من إغفاءة العصفور على غصن الشجرة.

رَوَوْا أن الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقف فجأة في المسجد ذات يوم وقال: «اللهم اشهدوا أنني كنت أرعى غنماً لخالات لي من مخزوم وكنت أجوع فلا أجد ما أطعمه، فكنّ يتصدقن عليَّ بشيء من اللبن أتقوّى به». ثم جلس. ولما سألوه لمَ فعل ذلك؟ قال «إنني أحسست في نفسي زهواً فأردت أن أُذِلَّها».

وقد سُمع يوماً يحّدث نفسه «بخٍ بخٍ يا بُنيَّ الخطَّاب. لقد أصبحت أمير المؤمنين».

النميري الذي نصَّب نفسه أميراً للمؤمنين آخر العهد، وبايعه أناس سرعان ما تنكروا له فيما بعد، كان يزعم أنه يقتفي أثر عمر ابن الخطاب، ولكن هيهات.

سمَّى القصر الجمهوري، قصر الحاكم العام، قصر الشَّعب. وسمى الجيش جيش الشعب، وسمَّى الدولة «جمهورية السودان الديموقراطية». غيَّر العلَم وغيَّر شعار الدولة ووضع دستوراً على هواه، ووضع صورته على العملة. أصبح عبد الملك بن مروان وأبا جعفر المنصور وهرون الرشيد وروبسبيير ونابليون وعمارة دُنقس وعبد الله جمَّاع. ألبسوه الطاقية ذات القرنين وأجلسوه على عرش ملوك سِنَّار. زغردت له النساء وغنّى له المغنون، وقد بدا له أن الأمر قد استتب له تماماً، وأنه مخلّد في الأرض. كان طيلة سبعة عشر عاماً، مثل ممثل وحيد على المسرح، في مسرحية من هذه المسرحيات الحديثة، التي يؤدي فيها الممثل أدواراً عدة، مستعيناً بالأقنعة، يخلع قناعاً ويلبس قناعاً. وكان الشعب مثل جمهور صامت، ينظر ويتعجَّب. وكان يقول في مقابلاته الصحافية أنه حوَّل السودان إلى جنة، وهو ضرب عجيب من ضروب خداع النفس، فقد كان واضحاً لكل ذي عينين، أن السودان كان مثل رجل مريض يشرف على الموت. كانت الخرطوم الجميلة مثل طفل يتيم في ثوب مهلهل، وكنت أقول من أقابل من وزرائه:

«كيف يرضى صاحبكم بهذه الخرابة حاضرة لمُلكه؟».

ثم كأنما سئم اللعب، وسرت فيه رغبة دفينة لتحطيم الذات. حرب

الجنوب بعد أن أخمدها عاد فأشعلها من جديد، واختطَّ سياسات رعناء، وارتكب حماقات لا مبرر لها. وكان يعيّن الوزراء ويفصلهم دون علمهم ودون سبب واضح. وقالوا إنه تصوَّف وزهد. ولكن زهده لم يشمل الزهد في الحكم. وأخيراً أقدم على عمل من أغرب ما يقدم عليه حاكم. فجأة أغلق عشرين سفارة من سفاراته، وهي نصف وزارة خارجيته، وذلك بحجة التقشف وتخفيض النفقة. وقد اتضح أن الخسائر التي حاقت بالدولة من جرّاء هذا العمل العبثي، أكثر كثيراً من نفقات ترك السفارات مفتوحة، ناهيك بالضرر الجسيم الذي لحق بسمعة الدولة.

هبَّ الشعب العظيم هبة رجل واحد، في انتفاضة رائعة كانت الثانية في تاريخه الحديث ضد حكم عسكري. ولعله كان أول شعب يفعل ذلك في العالم المعاصر. وهنا يدخل المسرح صاحبنا إبراهيم طه أيوب الذي كان سفيراً للسودان في «دلهي» حين زرناها، «منسي» وأنا، عام ثمانين وتسعماية وألف حين ثار الشعب ثورته تلك، كان سفيراً للسودان في «نايروبي». ولسبب ما أصبح المصدر الوحيد لأخبار الانتفاضة في أيامها الأولى، فانحاز إليها، وكان يزوّد وكالات الأنباء بالأخبار. ولما نجحت برئاسة المشير عبد الرحمن سوار الدَّهب، اختاروا صاحبنا إبراهيم طه أيوب وزيراً للخارجية.

■ ■ ■

ذلك العهد لم يدم طويلاً، وليته فعل. فقد أوفى سوار الدهب بوعده، فأجرى الانتخابات في موعدها. وسلّم الحكم لأهله، أو الذين ظنوا أنهم أهله، وذهب في حال سبيله.

هذا العمل البسيط، أسر خيال ملايين الناس، في السودان وخارج السودان، وأصبح ذلك الرجل الزاهد، عبد الرحمن سوار الذهب، رمزاً مضيئاً من رموز هذا العصر.

لقيناه في الحج منذ أربع سنوات، فاجتمع خلق كثير في خيمته في «منى»، من بينهم أحمد مختار أمبو الذي كان مديراً عاماً لمنظمة اليونسكو حينئذٍ. أقبل الناس يحيّون الرجل الذي لما قدموا له كأس الحكم قال «اصرفوها عني». كان أمبو يصارع في تلك الآونة ليحتفظ بمنصبه، وأظنه قرر بينه وبين نفسه في تلك البقعة المباركة، أن في الحياة أشياء أخرى غير المناصب، وأن اليونسكو بهيلها وهيلمانها، لا تساوي عند الله جناح بعوضة. حججنا معه ذلك العام، الفاتح حمد والطاهر مختار وأنا. وكان معه زوجته وابنة أخته وصديقه الحميم من أيام الطفولة، فضيلو ضيوف، نقيب المحامين في السنغال. كان رجلاً عجيباً. كان يؤُمّنا في الصلاة. ويرتل القرآن بصوت جميل بقراءة ورْش. طاف وسعى وأدى المشاعر، واكتشفنا بعد أن فرغنا من الحج، أنه كان يعاني طوال الوقت، فقد كان مصاباً بسرطان الكبد، وهو لا يدري.

ذهب أحمد مختار أمبو إلى موعد في «دلهي»، وعاد الفاتح حمد وزوجة أمبو وابنة أخته إلى باريس. وذهب الطاهر مختار إلى الرياض. وبقيت مع الحاج فضيلو ضيوف في جدة. ظل أسبوعاً في مستشفى الحرس الوطني، وكان الأطباء يعلمون أن حالته ميئوس منها.

أدخلته الطائرة وعانقته وعانقني، ودعا لي، ودمعت عيناه. تلك دموع لن أنساها ما حييت. لم يلبث أن توفاه الله بُعيد وصوله إلى دكار.

قابلت صديق صباه، أحمد مختار أمبو، بعد ذلك بقليل، في مكتبه في الطابق الخامس في مقر اليونسكو في باريس. كانت الأحداث تتدافع حوله وهو هادئ ساكن، وكأنه قد استقر على رأي. ولا بد أنني ذكرته بصديق طفولته. كنا قد أصبحنا صديقين في أيامه الأخيرة، حين غدا واضحاً أنه سوف يخسر المعركة، فأنا شغوف بالمعارك الخاسرة.

كان أحمد مختار أمبو أيام مجده، حين يسير في أروقة اليونسكو، يحدث هزة واضحة، مثل التمساح حين يطفو في النهر. ولكن انظر إليه الآن. خسر المعركة يوم السبت. وسافر يوم الأحد أو الاثنين. كان في وداعه في المطار، عبد الرزاق قدّورة، وبشير البكري، ومحمد إبراهيم كاظم، وسعيد مغربل، والفاتح حمد وأنا ورجل وسيدة من قدامى موظفي اليونسكو. هذا كل ما في الأمر، بعد ثلاثة عشر عاماً من الحل والربط، والهيل والهيلمان.

لقيت عبد الرحمن سوار الذهب منذ شهرين في صلاة الجمعة في عمان. لمحني في الصلاة فلبث ينتظرني عند الباب. كذلك هو. إنسان مهذب أبداً، رآه الناس، فتدافعوا نحوه، يسلمون عليه، وكأنهم يتبركون برجل صالح من عهد غابر.

أما صاحبنا إبراهيم طه أيوب، الذي لمع نجمه برهة قصيرة أيام الانتفاضة فأصبح وزيراً للخارجية، فإنه لما عاد رجال الأحزاب إلى الحكم بعد الانتخابات، رجع هو أدراجه إلى وزارة الخارجية، فعيّنوه سفيراً للسودان في روما. ولا بد أنه كان يحسّ بالرضى. فقد قام بواجبه، وكتب أسطراً إن لم يكن صفحات من تاريخ وطنه. ولعله ظن أن أسوأ ما يمكن أن يحدث له، هو أن يقضي بقية سنواته

سفيراً إلى أن يصل سن التقاعد. ولكن هيهات.

فرح الناس بالصادق المهدي، وكنت من جملة الفرحِين. قلنا إذا كان الأمر أمر تعليم، فهذا رجل تعلم في جامعة أكسفورد. وما أدراك ما جامعة أكسفورد. وإذا كان المطلوب هو التجربة والخبرة، فهذا رجل أتته رئاسة الوزارة منقادة إليه تجرجر أذيالها وهو لما يتجاوز الثلاثين. وإذا كان المعوّل على «العصبية» كما وصفها ابن خلدون، فهذا رجل سليل أئمة ووريث حكم. أضف إلى ذلك بسطة في العقل والجسم، وطلاقة في اللسان ونصاعة في البيان. وهو بعد مهذب كريم «أخو إخوان» مثل سائر السودانيين.

في تلك الأيام كنت أزور السودان، فأصرَّ رجل «محب» للصادق المهدي أن يجمعني به. قلت له «يا أخي ما لي ولهؤلاء الحكّام؟ إنهم في واد وأنا في واد».

اتفقنا أن نصلي معه صلاة المغرب في داره في أم درمان، قبالة دار الإذاعة. ولما وصلنا، وجدنا أنه قد اتصل بالتلفون من مقر رئاسة الوزارة، واعتذر بأنه سوف يتأخر، لأن المجلس كان مجتمعاً ذلك المساء في أمر هام.

وجدت داراً بسيطة كدور كثيرين من الميسورين في أم درمان، لم يكن فيها أي مظهر للبذخ أو الترف. كانت داراً واسعة، عامرة ومأهولة. وقد لاحظت وأنا أتوضأ أن «حنفية» الماء مكسورة. فقلت لزوجة رئيس الوزراء:
«حتى أنتم حنفية مائكم مكسورة؟».
فأضحكها ذلك.

صلينا صلاة المغرب، أنا وصاحبي، وكانت تلك أول مرة أصلي فيها في دار رئيس وزراء.

جاءت لنا زوجته «ساره»، وهي سيدة ذكية لطيفة، بالشاي و«الكيك». وجاءت ابنته وسلّمت علينا. ثم لم يلبث أن لحق بنا السيد رئيس الوزراء.

لقد عرفته في لندن حين كان طالباً في جامعة أكسفورد. كان تلك الأيام مثل «كاسيوس» كما وصفه شيكسبير في مسرحية «يوليوس قيصر». ثم عملت معه فترة وجيزة عام ١٩٦٦ حين كان رئيساً للوزراء ووزيراً للإعلام وهو لما يتجاوز الثلاثين. ثم ها هو الآن بعد نحو عشرين عاماً. هو هو، لم يتغيّر كثيراً. أدبه الجم نفسه ودماثته المعهودة.

رأيت وجه صاحبي يضيء بمحبة خالصة، وأنا كلما أرى وجوه المحبين أحسّ بالشفقة. في حجتنا تلك مع أحمد مختار أمبو، رأينا رجلاً في «منى» ينكب على يدي شيخ يقبلهما ويبكي. قلت للطاهر مختار:
«أرجو أن يكون هذا الشيخ أهلاً لمحبة هذا المريد».

جلسنا نشرب الشاي ونأكل «الكيك»، وكان الصادق المهدي كعهده دائماً، مهذباً لطيفاً جم التواضع.

قال لي صاحبي، الذي كان يستمع إلى كل كلمة يقولها الصادق المهدي، كأنه يشرب ماء سلسبيلاً في يوم قائظ:
«انصح السيد رئيس الوزراء».

ضحكت، فقد تذكرت كيف أن الناس كانوا يقولون في مجالس خلفاء العباس «عظ أمير المؤمنين». ومن أنا حتى أنصح السيد رئيس الوزراء؟

قلت لصاحبي:

«لا بد أن السيد رئيس الوزراء قد استمع إلى نصائح كثيرة من أناس كثيرين. ولا أظنه في حاجة إلى مزيد من النصح».

ثم، كأنما عمداً، وجهت الحديث إلى الأشياء العملية الصغيرة، كما يفعل عامة الناس. وقد أحسست أن السيد رئيس الوزراء، كان يؤثر أن يتحدث على مستوى أعلى. وأنا لا أبالي أن أخوض في غمار الفكر مع الخائضين، ولكنني كنت قد قضيت أياماً في السودان ورأيت طوابير البنزين والخبز، ولمست انقطاع الماء والكهرباء، وعانيت من صعوبة المواصلات واستحالة السفر من مكان إلى مكان.

وخرجنا من عنده، وكان صاحبي يهوِّم في سبحات من المحبة الخالصة. وأنا أيضاً كنت حسن الظن في الصادق المهدي، أؤمل فيه خيراً كثيراً. لكنني لم أقع أسير جاذبيته كما فعل صاحبي وقلت لنفسي:

«هذا رجل اجتمعت له كل مقومات الزعيم الكبير. ومع ذلك... مع ذلك... مضى رجال الأحزاب يخبطون خبط عشواء. وكأن انتفاضة رجب المباركة لم تحدث، وكأن ما كان طوال سبعة عشر عاماً لم يكن، وكأن الزمن رصيد لا ينفد يبددونه كيف شاءوا.

ثم، كما كان حتماً أن يحدث، استيقظوا ذات صباح، فإذا الجيش قد ربط خواصر الجسور وأغلق أفواه الطرق، وإذا الصحف معطلة، والبرلمان موصد، والأحزاب محظورة، وإذا هم داخل السجون.

وهنا تنتهي قصة صاحبنا إبراهيم طه أيوب، التي بدأت معنا في «دلهي» عام ثمانين وتسعمائة وألف، فقد أحالوه إلى التقاعد، بين عشرات رأى العهد الجديد أن مصلحة الوطن تقتضي إحالتهم إلى التقاعد.

إنني أتذكر الآن عبد الرحمن سوار الدهب، والناس مجتمعون عليه في خيمته في «منى». وأتذكر أحمد مختار أمبو ونحن في الحرم النبوي الشريف في صلاة العصر، وأتذكر الصادق المهدي، يتحدث حديثه المهذب في داره في أم درمان بعيد صلاة المغرب، وأتذكر فضيلو ضيوف، رحمه الله، وعيناه تدمعان، وأنا أودعه إلى غير لقاء في الطائرة في جدة.

أما صاحبنا الجديد في الخرطوم، فلا بد أنه هو أيضاً كريم مهذب أخو إخوان. لئن كان حقاً تقياً ورعاً كما يقال، فالبدار! البدار!

## ١٣

مباني كلية «قولد سمث» في منطقة «نيوُ كروسْ» العمّالية في جنوب شرقي لندن، مثل البنت الجميلة التي تستغني بشبابها عن الحُلي والثياب الغالية. عُطْل من الأبهة التي تقْحمك في مباني الجامعات العريقة، مثل «أكسفورد» و«كيمبردج». تلك مؤسسات قامت في عهود الإقطاع وغلبة الطبقة الأرستقراطية والكنيسة، ففي معمارها أصداء من ذلك، إنما جامعة لندن فهي وليدة علوّ نجم الطبقات العاملة، وكلية «قولد سمث» خاصة، يرتبط تاريخ مولدها ونشأتها بالتحوّلات الاجتماعية الكبيرة التي تعرّض لها المجتمع البريطاني منذ القرن التاسع عشر وإلى اليوم.

مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية، وهي أشهر كليات جامعة لندن، أنشأها «سدني وبْ». كان أرستقراطياً، ولكنه انحاز مثل كثيرين من تلك الطبقة إلى صفوف غمار الناس. أنشأوا جمعية الفابيانيين التي

كانت في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن بمثابة العقل الذي غذّى حزب العمال بالفكر. انضم إليهم الكتّاب أمثال «بيرنارد شو» والعلماء أمثال «برفّسور توني» العتيد، وكان «سدني وب» وزوجته «بياتْرسْ وبْ» من أقطاب الفبيانيين، وقادة الرأي في حزب العمال.

أيضاً كان «سدْني وبْ» أحد الذين رعوْا كلية «قولْدْ سمثْ» منذ بدايتها المتواضعة، في عام ١٨٩١ اشترت شركة «قولد سمث» التجارية بخمسة وعشرين ألف جنيه، مباني كانت تستعملها البحرية البريطانية في أغراض التدريب وأنشأوا معهداً حدَّدوا هدفه:

«تنمية المعرفة والقدرات الإبداعية ومنح الصحة والسعادة للشبان والشابات الذين ينتمون إلى الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة».

كان ذلك بلا شك، بدافع إنساني، ولكن أيضاً بدافع غريزة البقاء والمحافظة على الذات، فقد بدأت الطبقات المحظوظة في بريطانيا تحسّ أنهم إما أن يُعطوا الفقراء والمساكين من فضول أموالهم طواعية، وإما أن الطوفان الجارف للمطالبين بالعدالة الاجتماعية، سوف يغرقهم في وجهه.

ظلت الشركة تنفق على المعهد من مالها الخاص، وكانوا يؤملون أن يكون نواة لكلية جامعية تامة تستفيد منها مناطق جنوب شرقي لندن الفقيرة. وفي عام ١٩٠٤ قدموا المباني هدية لجامعة لندن مشترطين أن تظل تُستعمل في الأغراض التعليمية.

**هذا الحلم لم يتحقق إلّا في عام ١٩٨٨، فبعد مفاوضات طويلة مع سلطات جامعة لندن، وجهود رجال ونساء أفذاذ نوّه بهم «برفسور**

رزرفورد» في كلمته الافتتاحية ـ أخيراً «ميثاق ملكي» نص على أن تكون كلية «قولد سمث» (مدرسة)، أي كلية جامعية كاملة من كليات جامعة لندن.

فذلك الاحتفال كان مجموعة احتفالات كما قال العميد، ذلك الرجل الإسكتلندي الواضح، الذي تحس أنه يقول ما يعني ولا يبالي، وكان خطابه مزيجاً من الجد والهزل، والثناء والنقد، ووراء كل ذلك الحكمة في توخّي المصلحة العامة. ذكر أن الاحتفال يصادف ذكرى مرور مائة عام على إنشاء الكلية، وأنه أول احتفال بتخريج الطلبة، كما أنه احتفال بأن كلية «قولد سمث» قد أصبحت كلية جامعية كاملة. وأشاد بالدعم الذي قدّمه «لورد وايتْلو» للكلية، أثناء مفاوضاتها الطويلة مع سلطات جامعة لندن. وقد كان «لورد وايتلو» إلى وقت قريب نائباً لرئيسة الوزراء، وكان في نظر الكثيرين أحق من تلك السيدة برئاسة الوزارة. كذلك أثنى على «لورد فلَوَرْز» للمساعدة التي وجدوها منه، وقد كان رئيساً لجامعة لندن Vice Chancellor في الفترة التي كانوا يتفاوضون فيها مع الجامعة.

إلّا أن العميد لم يألُ في نقد سياسة الحكومة إزاء الجامعات، وخاصة في عهد «مسز ثاتشر»، وهي نغمة ظلّت تتردد في ما تلى من كلمات. ومعروف أن «مسز ثاتشر» ضيّقت الخناق على الجامعات وقتّرت أشد التقْتير في الدعم الذي تقدّمه الحكومة لها. ذلك أثار حفيظة الأكاديميين، وهم أصلاً بحكم تقليد قديم لديهم، لا يكونون على وفاق مع الحكومات خاصة حكومات المحافظين.

في هذا السياق، نوّه «برفسور رزرفورد» بالخدمة الأكاديمية

والاجتماعية المميزة التي تؤديها كلية «قولد سمث»، وقال إن بها اليوم ثلاثة آلاف وخمسمائة طالب وطالبة يتلقون العلم في شتى فروع المعرفة، جاءوا من لندن ومن بريطانيا عامة، ومن أماكن كثيرة في العالم. هذا بالإضافة إلى أربعة آلاف طالب وطالبة في فصول «الدراسة المستمرة». وقال إن الكلية حافظت على دورها القديم في تدريب المعلمين وفي تدريس الفنون، وقال إن بها أكبر قسم لتدريس الفنون في أي من جامعات بريطانيا.

فكّرت وأنا استمع إلى الكلمات، وما تزال ترنّ في أذني أصداء موسيقى «هانْدل» التي كأنما تهيب بحشد أن يُقْدم، قلت، هؤلاء أناس أحرار في بلد حر، كل واحد واثق من نفسه وواثق من انتمائه لوطنه، مؤمن بأهمية العمل الذي يقوم به، لا يحس أنه أقل من الوزراء أو رئيس الوزراء. كل واحد يقول بأمانة، في حدود اللياقة والكياسة ما يرى أنه الصواب. إن عاجلاً وإن آجلاً تتلاقى الأفكار وتتفاعل، وينتج فكر متجانس يرضى به الناس ويترجمونه إلى عمل، الهدف هو المصلحة العامة، ولا هدف سواه.

وفكّرت في السودان المسكين الذي أناخوا عليه بكلكلهم منذ أمد. كل يجيء بخيْله وخُيَلائه ينادي بالإصلاح، ثم يذهب، فهم يذهبون ثَلَّة ثلّة طال الزمان أو قصر. وتتلفّت حولك فلا تجد إلّا الخراب. هؤلاء قرروا الآن ضربة لازب أن يفتحوا جامعات جديدة، في كسلا وفي عطبره وفي شندي. الله أعلم أين. أسموا ذلك ثورة تعليمية. في أثناء ذلك خرّبوا الجامعات القائمة أصلاً. خرّبوا جامعة الخرطوم العريقة فهجرها أساتذتها واصفرّ عُشب ميادينها. وقرروا أيضاً كما ينطلق السهم الطائش وخلاف ما نصح به العارفون، أن يُعربّوا التعليم في الكليات العلمية مثل الطب والهندسة والزراعة،

علماً بأن هذه قضية معقدة لم يبت الخبراء في أمرها بعد، في منظمة اليونسكو وفي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. عرِّبْ التعليم يا هداك الله، ولكن خُذ الأهْبة واسْتعدّ الاستعداد.

إنما هكذا، فإنك سوف تملأ البلد حمَلة شهادات لن ينفعوك ولن ينفعوا البلد.

قارنْ يا أصلحك الله بين عَجَلة أصحابنا أولئك، وبين حكمة هؤلاء القوم. انتظروا أكثر من تسعين عاماً حتى يجعلوا كلية «قولد سمث» كلية كاملة بنص عهد ملكي، في نطاق جامعة لندن. أما كان باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك بين غمضة عين وانتباهتها حسب هذه الأساليب «الثورية»؟ وهم عندهم المال والعدّة والعتاد؟

هل قلت الحكمة؟ بلى، لعلّهم أكثر حكمة منا.

■ ■ ■

الله أعلم ماذا حدث لتلك السيدة الجميلة الوجه التي أَوْفَتْ على الثمانين؟ لقد عرَفَتْني وابتسمتْ لي ذات يوم في مطار الخرطوم الحزين؟

من نواحي رُفَاعة أو الكامْلين. أو لعلَّها منْ جهة أبعد شمالاً أو جنوباً. من «الجنَينة» أو «سنَّار» من «المتمّة» أو «الفَدَّار». عرفتْني لأنني أُحببتها وأنا بعد طفل يقعد ويقوم، وحملتُ حبها وطوّفت به في الآفاق. ثم ها أنذا وقد تداعى البنيان وتزعزعت الأركان.

لم تجدي قبراً يسترك في ذلك البلد الطويل العريض، أجْبروك على النزوح وقد حقَّ لك أن تستقري وتستريحي. لعلّك تموتين وتدفنين في بلد بعيد، في أرض ليست أعْطانك(*) وجيرةٍ ليسوا جيرانك. لك الله. والثورات تشبّ وتخمد، والعهود تجيء وتذهب.

* * *

نعم. قلتُ إن ذلك الاحتفال أثارني وحرّك أشجاني، خصوصاً حين جاء وقت منح الزمالات الفخرية التي تعادل الدكتوراهات الفخرية في جامعات أخرى. خمسة رجال، كل واحد منهم بلغ شأواً في ميدانه، وكل واحد منهم قدّم خدمة من نوع ما لكلية «قولْد سمثْ».

ينادي الرئيس باسم الشخص الذي اختاروه للتكريم، فيقوم من مقعده ويقف متجهاً بوجهه إلى الجمهور في القاعة. وينادي الرئيس على اسم رئيس القسم الذي رشحه، فيقوم ويأخذ في تقريظ الرجل وبيان الأسباب التي جعلت الكلية تمنحه زمالتها الفخرية.

الموسيقي البارز «جاكْ برايمْر» حامل وسام الأمبراطورية OBE، ومن أشهر عازفي آلة «الكلارنتْ» في المملكة المتحدة. ترجع صلته بكلية «قولد سمث» إلى عام ١٩٣٣ حين التحق بها ليتدرب ليصبح مدرساً للموسيقى. كان يعزف مع فرقة معهد الدراسات المسائية، وكان أيضاً يلعب الـ «رقْبي» مع فريق الكلية، ومثّل كلية «قولْد سمث» في مباريات جامعة لندن.

(*) أَعْطانُ الإبل، مرابعها.

عمل مدرّساً فترة، وحين شبّت الحرب انضم إلى سلاح الطيران. وفي عام ١٩٤٧ اختاره «سير توماس بيتْشام» عازفاً في فرقة «الفلْهارمونكا الملكية» التي كانت قد أنشئت لتوّها. لمع اسمه كواحد من أبرز عازفي الكلارنتْ في بريطانيا، وأصبح عازفاً أول في الفرقة السيمفونية لهيئة الإذاعة البريطانية، وأستاذاً في الأكاديمية الملكية للموسيقى.

إلى جانب اهتمامه بالموسيقى الكلاسيكية، اهتم بموسيقى الجاز، وعزف مع فرق بريطانية وأمريكية. وقد أدى دور «السولو» للكلارنت أوائل هذا العام في الحفل الموسيقي الذي قدمته فرقة كلية «قولد سمث» في ذكرى عيدها المئوي، وعزفت فيه كُنْشرْتو موزارْ، التي صادف أن مضى عليها هي أيضاً مائة عام منذ تأليفها.

فكرتُ في قومي رعاهم الله، غربيَّ وشرقيَّ السُّويس، وإلى الشمال منه والجنوب، حيث «الأسْوأ مثل الأفضل» كما قال أحد شعراء هؤلاء القوم، (رِدْيارْد كبْلنجْ). ذلك، والرجل المحتفَى به يستمع الثناء عليه في استحياء. رجل ربعة القامة في السبعين أو يزيد، ولكن كأنه في الخمسين، أقرب إلى هيئة لاعبي كرة الـ (رقبي) منه إلى الموسيقيين. ولما فرغ الخطيب من تزكيته، اتجه نحو الرئيس، وانحنى كل منهما للآخر، انحناءة لم تأخذْ غير ثوانٍ، ولكنها كانت حافلة بالمعنى. صافحه الرئيس وسلّمه براءة زمالته الفخرية.

**ثم.. الرايتْ أُنَربُلْ لورد فلوَرْز، زميل في الجمعية الملكية، وعضو مجلس اللوردات. وقف رجل مديد القامة، فوق السبعين ولا بد، ويبدو أصغر سناً. أخذ يصغي إلى رئيس قسم العلوم يعدّد مناقبه، بانتباه وسعادة كأنّ ذلك أعظم شرف يناله في حياته، رغم أنه نال أمجاداً كثيرة من قبل.**

عالم «فيزيائي» خدم في جامعتي «بيرمنجهام» ومانشستر»، كما عمل في قسم الأبحاث الذرية في «هارْول». وفي عام ١٩٧٣ أصبح رئيساً للكلية الأمبراطورية للعلوم، وهي من أشهر معاهد تدريس العلوم في العالم. ثم صار رئيساً لمجلس البحوث العلمية، ورئيساً لمعهد الفيزياء. وتوّج حياته الأكاديمية بأن صار رئيساً لجامعة لندن. في تلك الفترة، كان له دور كبير في نجاح المفاوضات بين كلية «قولد سمث» والمجلس الأعلى لجامعة لندن، وجعْل الكلية «مدرسة» كاملة في نطاق الجامعة.

بعد تقاعده، أصبح له دورٌ فاعل في مجلس اللوردات، الذي اختاره رئيساً للجنته المختارة لدراسة أوضاع العلوم والتكنولوجيا، كما ظل منذ عام ١٩٧٨، رئيساً لمؤسسة «نفيلدْ» الخيرية.

ولم ينسَ الخطيب أن ينوّه بالدور الذي يلعبه «لورْد فَلَورز» على نطاق القارة الأوروبية، مثل عُضويته للأكاديمية الأوروبية، وأنه يحمل وسام الشرف من فرنسا.

كيف لم يَنؤْ كاهل هذا الرجل تحت ثقل الأمْجاد التي يحملها والأعباء التي نهض بها؟ يحق له الآن أن يرتاح. يأوي إلى مزرعته في الريف، يُربّي الأبقار ويلعب الـ «جولْف» ويقرأ روايات «أقاثا كريستي». لكن هذا لن يحدث. هو الآن في قمة نضجه العقلي، وسوف يحمّلونه أعباء أكثر في خدمة المجتمع. أناس أحرار في بلد حرّ، وكلٌّ يعطي حسب قدرته على العطاء، لا يمنعه عن ذلك إلّا حدود موهبته.

كَمْ من الرجال والنساء ـ قلتُ لنفسي ـ حيلَ بينهم وبين خدمة

أوطانهم وهم في ذرْوة العمر؟ ضباط في الجيش قُتلوا أو سجنوا أو أُحيلوا للتقاعد؟ معلّمون أرغموا على ترك وظائفهم؟ سفراء أستُغني عن خدماتهم ظُلماً فتحولوا إلى تجار، موظفون أنفقوا زهرة أعمارهم في الخدمة المدنية فأُلقي بهم كما تُلقَى القمامة. أساتذة في الجامعات اضطروا إلى الهجرة اضطراراً فتشتّتوا شرقاً وغرباً.

أكثر ما حدث في هذا السودان المسكين، ذلك البلد الغني الفقير، العظيم الصغير. وكل ذلك بسبب هؤلاء «الزعماء» النجباء، الأذكياء الأغبياء، الذين يتوهّمون أن إرادة الله قد اختارتهم ليكتبوا الصيغة النهائية في سِفر التاريخ.

من الذي يبني لك المستقبل يا هداك الله، وأنت تذْبح الخيل وتُبْقي العربات، وتُميتُ الأرض وتُحيي الآفات؟

المستقبل لن يجيء على صورة محدَّدة. أمَا علّموك ذلك في جامعات لندن وهارْفرد والسوربون؟

الأوطان لا يبنيها رجلِ واحد ولا حفْنة رجال، مهما بلغ منهم الإلهام والعبقرية، ولكن يبنيها مئات الآلاف من الرجال والنساء. ناس أحرار في وطن حرّ. كلٌّ يعطي على طريقته وقدْر استطاعته. المستقبل بيد الله، المفتاح ليس بيدك، وأنت لا تدري ويمنعك الغرور والكبرياء أن تعترف أنك لا تدري.

## ١٤

هل السماء ما تزال صافية فوق أرض السودان أم أنهم حجبوها بالأكاذيب؟

هل مطار الخرطوم ما يزال يمتلىء بالنازحين؟ يريدون الهرب إلى أي مكان، فذلك البلد الواسع لم يعد يتسع لهم. كأني بهم ينتظرون منذ تركتُهم في ذلك اليوم عام ثمانية وثمانين. يُعلَن عن قيام الطائرات ولا تقوم. لا أحد يكلّمهم. لا أحد يهمه أمرهم.

هل ما زالوا يتحدثون عن الرخاء والناس جوعى؟ وعن الأمن والناس في ذُعر؟ وعن صلاح الأحوال والبلد خراب؟

جامعة الخرطوم مغلقة، وكل الجامعات والمدارس في كافة أنحاء السودان. الخرطوم الجميلة مثل طفلة يُنيمونها عُنوة ويُغلقون عليها

الباب، تنام منذ العاشرة، تنام باكية في ثيابها البالية، لا حركة في الطرقات. لا أضواء من نوافذ البيوت. لا فرح في القلوب. لا ضحك في الحناجر. لا ماء، لا خبز، لا سُكّر، لا بنزين، لا دواء. الأمن مستتب كما يهدأ الموتى.

نهر النيل الصّبور يسير سيره الحكيم، ويعزف لحنه القديم. (السادة) الجدد لا يسمعون ولا يفهمون. يظنون أنهم وجدوا مفاتيح المستقبل. يعرفون الحلول. موقنون من كل شيء. يزحمون شاشات التلفزيون ومكرفونات الإذاعة. يقولون كلاماً ميتاً في بلد حي في حقيقته ولكنهم يريدون قتله حتى يستتب لهم الأمن.

من أين جاء هؤلاء الناس؟ أما أرضعتهم الأمهات والعمّات والخالات؟ أما أصغوا للرياح تهبّ من الشمال والجنوب؟ أما رأوا بروق الصّعيد تشيل وتُحط؟ أما شافوا القمح ينمو في الحقول وسبائط التمر مثقلة فوق هامات النخيل؟ أما سمعوا مدائح حاج الماحي وود سعد، وأغاني سرور وخليل فرح وحسن عطية والكابلي المصطفى؟ أما قرأوا شعر العباس والمجذوب؟ أما سمعوا الأصوات القديمة وأحسوا الأشواق القديمة، ألا يحبون الوطن كما نحبه؟ إذاً لماذا يحبونه وكأنهم يكرهونه ويعملون على إعماره وكأنهم مسخّرون لخرابه؟

أجلسُ هنا بين قوم أحرار في بلد حرّ، أحسّ البرد في عظامي واليوم ليس بارداً. أنتمي إلى أمة مقهورة ودولة تافهة. أنظر إليهم يكرمون رجالهم ونساءهم وهم أحياء، ولو كان أمثال هؤلاء عندنا لقتلوهم أو سجنوهم أو شرّدوهم في الآفاق.

**من الذي يبني لك المستقبل يا هداك الله وأنت تذبح الخيل وتبقي**

العربات، وتميت الأرض وتحيي الآفات؟

الدكتور «إدْون كير» .C.B.E، كان حتى عام ١٩٨٦ رئيساً للمجلس القومي لتقييم الدرجات الأكاديمية، وهو مجلس أنشىء بميثاق ملكي عام ١٩٦٦ لمنح الدرجات الجامعية للذين يدرسون في معاهد غير الجامعات، وإليه يرجع الفضل أن الفوارق بين الجامعات والمعاهد الفنية Poly-technics قد ألغيت وأصبحت هذه المعاهد تمنح شهادات جامعية معترفاً بها. منحوه الزمالة الفخرية لهذا ولأنه ساعد في تذليل العقبات كي تصبح كلية «قولد سمث» مدرسة كاملة في جامعة لندن.

بروفسور «كارل ويت» حامل نوط الأمبراطورية البريطانية وعضو الأكاديمية الملكية، رسام، يسمونه «أبا» الفن الحديث في بريطانيا. تعلم الرسم في كلية «قولد سمث» عام ١٩٣٣. عمل مدرساً في الكلية الملكية للفنون حيث صار أستاذاً عام ١٩٥٧ إلى أن تقاعد عام ١٩٧٣. قال عميد الكلية في تزكيته:

«إن منح الزمالة الفخرية لهذا الابن النابه من أبناء كلية «قولد سمث» يدل على عمق فخرنا به وأيضاً على السمعة التي كونتها الكلية أنها المعهد الأول لتدريب الرسامين في بريطانيا».

**الرايت أُنَرَبل فايكاونت (وايتلو). اسكتلندي. حامل نيشان الأمبراطورية من طبقة فارس. زميل شرف. يحمل درجة الدكتوراه في القانون. عضو في مجلس مستشاري الملكة. تخرج من جامعة كيمبردج. نال وسام الشجاعة لحسن بلائه في الحرب العالمية الثانية. انتُخب نائباً في مجلس العموم عام ١٩٥٤. عمل وزيراً للتجارة**

ووزيراً للمالية ووزيراً لشؤون إيرلندا الشمالية. انتخب عام ١٩٧٥ نائباً لرئيس الحزب وأصبح نائباً لمسز ثاتشر رئيسة الوزراء. في عام ١٩٨٥ دخل مجلس اللوردات وأصبح «زعيماً» للمجلس. في عام ١٩٨٨ ترك الحياة السياسية باختياره ولكنه لم يختفِ من الحياة العامة، فقد صار بحكم سنه وتجربته السياسية الطويلة أحد الحكماء الذين يلجأون إليهم في الملمات. سوف يعيش باقي عمره معززاً وحين يموت، سوف يموت قرير العين في فراشه، تكتب صحيفة الـ «التايمز» صفحة كاملة في تأبينه. وكل الصحف. سوف تقام الصلاة على روحه في «ويستمنستر آبي» وتعاد طباعة مذكراته وتصدر كتب عن حياته. سوف يحتل مكانه الذي يستحقه في سجل تاريخ الأمة، ويصبح جزءاً من المثلوجيا القومية التي تعمل في وجدان الشعب وتنتقل من جيل إلى جيل.

هل حرائر النساء من «سودري» و«حمرة الوز» و«حمرة الشيخ» ما زلن يتسولن في شوارع الخرطوم؟

هل ما زال أهل الجنوب ينزحون إلى الشمال وأهل الشمال يهربون إلى أي بلد يقبلهم؟

هل أسعار الدولار ما تزال في صعود وأقدار الناس في هبوط؟ أما زالوا يحلمون أن يقيموا على جثة السودان المسكين خلافة إسلامية سودانية يبايعها أهل مصر وبلاد الشام والمغرب واليمن والعراق وبلاد جزيرة العرب؟

من أين جاء هؤلاء الناس؟ بل - من هؤلاء الناس؟

## ١٥

لماذا الجزع يا قلبي؟ أما ودّعت الأحباب من قبل؟ أنسيت أن الموت أقرب إليك من حبل الوريد يجيئك من حيث لا تحتسب؟ كأنك تمنّيت أن يبقى بعدك، يرثيك ويترحم عليك. كان أوثق صلة بربه، وأصفى روحاً، وأبلغ دعاء، فيا ليته ظل، وأنت ذهبت ـ ولو كان الموت يقبل المُفاداة، لكانت تلك قسمة عادلة.

إنما الله قاهر فوق عباده، ومشيئته لا تردّ، فالحمد لله.

جاءك الخبر الفادح على غفلة، فزعزع أركانك. واحسرتاه. من لي بعدك بتلك الابتسامة المضيئة، وذلك الوجه الرضي، كأنه مرآة مجلوّة تعكس دخيلة قلب يفيض بالخير والمحبة وتقوى الله؟

كان تاج السر محمد نور، أخي وصديقي، ابن عمتي وصهري من

بقية النفر الأبرار الذين مشوا على الأرض هوْناً، ونادتهم الحياة ونادوها بلسان المحبة. الأصفياء الذين صابروا ورابطوا في الحمى، وظلت نيرانهم موقدة. ولد في السرّاء فلم تبطره السَّراء، وحين تحول الزمان لم يأسَ على تحول الزمان، مثل الجبل الأشم، يمر به السحاب وتهب الأعاصير.

ما أوسع الحزن وما أضيق الكلمات، وهذا عِدلُ نفسي بحق. ألا يعزّيك أن تعلم أنه رحل عن الدنيا قرير العين راضي النفس؟ أما كان دائماً كأنه على أُهبة السفر؟ لم يتريث للوداع. لم يلوح بيده. لم يتلفت وراءه. كان ذاهباً إلى لقاء ربه في صلاة الجمعة. مقبلاً إليه بكلّيته، على أهبة الاستعداد للسفر. في الطريق ثمة، ناداه الصوت الذي تبعه منذ البدء. استجاب له ببساطة، بلا جلبة ولا ضوضاء، كان مقدّراً أن يتم الأمر على هذه الصورة، فقد عبَد الله في خِفْية.

عبَد الله بخشية وخفْية، فلا تكاد تعرف طول عبادته. ولكن سرَّه كانت تفضحه الأنوار التي تلمع على وجهه.

نشأنا معاً منذ طفولتنا، فقد كنا من سن واحدة، يصغرني بعام. كان الزمان جميلاً، فتقاسمنا حلاوة الزمان. وحين تغير الزمان، كان بعضنا يشدّ أزر بعض فلم نكترث لتغير الزمان. أولئك إخوتي في العهد الأول، هو وعلّوب وسيد إبراهيم عباس مدّ الله في أعمارهم.

وكان هو أسرعنا بَذْلاً، وأصدقنا قولاً، وأمضانا عزيمة، وأرجحنا عقلاً وأكثرنا مرحاً، وأصبرنا على الشدائد.

كانت فيه غبطة وفرح داخلي، كأنه يتكتّم نبأ ساراً. وتلك السكينة

لأنه أبداً لم يجرب الإحساس بالذنب. ومن أين يجيئه الإحساس بالذنب؟ نشأ في طاعة الله. أطاع الله ببساطة، وكأنه لا يبذل جهداً، وكأن سبل الحياة المحيرة قد سدّت كلها عليه، وانفتح أمامه طريق واحد، هو طريق الخير والصلاح، فسلكه، وظل يسير فيه إلى لقائه الموعود بربه يوم الجمعة.

من أين يجيئه الإحساس بالذنب؟ لقد أوفى بالعهود كلها وأكثر. برّ بأبويه ووصل أرحامه، ورضي عن الناس ورضوا عنه. استقبل القادمين وودّع المسافرين، وعاد المرْضى ودفن الموْتى. وفَى بنصيبه ونصيبي أيضاً. يسد كل ثغرة أغفلتُها، وينهض بكل واجب تركته يقْبلُني على علاّتي ويغضّ الطرف عن هفواتي.

رجل ثابت في زمان متقلّب. كنتُ أغيب العام والعامين، وحين أعود أجده كما عهدته دائماً. داره تتسع قليلاً، وأثاث بيته يتحسن قليلاً، إنما أبداً لا تجد عنده آثار نعمة طارئة أو ثروة مفاجئة. والدار أبداً عامرة بالناس، عشيرته وأصدقاؤه، لا يكادون يتغيّرون على مرور السنين.

عمل في مصلحة الجمارك وهو دون العشرين من عمره، وظل يَرْقى الدرجات بفضل إخلاصه وجدّه وذكائه الخارق، وتلك العناية الإلهية التي كان تقود خطاه، حتى وصل إلى أرفع المناصب، وأصبح من قلّة يُضرب بهم المثل في الكفاءة وعفة اليد. كان يقول إنه قطع عهداً على نفسه ألا يطعم عائلته من المال الحرام، وما كان أكثر المال الحرام.

ظل من الصابرين المرابطين في الحمى. مرة سافر إلى بعثة دراسية في معهد الجمارك في الإسكندرية. ومرة ذهب مُعاراً من حكومة السودان إلى اليمن. وخرج مرتين لأداء فريضة الحج. غير ذلك لم

يبرح السودان أبداً. وأنا وأمثالي نضرب في البلاد ونجوب الآفاق.

شجرة وارفة تتفيأ ظلالها وتأكل من ثمارها. تجلس إليه فتغرف من نبع لا ينضب. كان قوي الذاكرة بشكل عجيب، يحفظ القرآن والحديث والشعر الفصيح وشعر الدوبيت والتاريخ والأنساب والمُلَح والطرائف. يغمرك بروحانيته، وينسيك عَنت الحياة. يجعلك تحسّ أنك أفضل مما أنت في الحقيقة. تحس أن مجرد وجوده في الدنيا يجعلها أكثر خيراً وأقل عُدْواناً.

رجلٌ مصباحٌ، يكون قُدوةً ويُضرب به المثل، جاد به الزمان في لحظة من لحظات أريحيته النادرة، فرفّ مثل طيف جميل، مثل الغيث في الربيع، ثم مضى على عجلٍ ويا للحسرة، ولما استرد الخالق وديعته، فكأن الزمان عاد بخيلاً كعهده. رحيله ورحيل الصالحين أمثاله، علامةٌ كما جاء في الأثر.

مضى إلى حياة أفضل إن شاء الله، مع الصدّيقين والأبرار. وأنا لي الله. لأنه أغنى حياتي بحياته، وأفاض عليَّ من بركاته، فإنه برحيله قد أفقرني جداً، وتركني أقل مما كنت. وأنا قليل أصلاً في ميزان الحق.

أُفٌّ للدنيا. تعطيك هباءً يحسبُهُ الناس هبَات. والذي تحبه يذهب ولا يعود. ولا عزاء.

رحم الله تاج السرّ محمد نور.
وصبرٌ جميل والله المستعان.

كانت (سواكن)، على الشاطىء الغربي للبحر الأحمر، توأم (جدة). عاشت حياة حافلة، دامت أكثر من ألف عام، ثم ماتت. قتلها الإنجليز ـ عمداً على الأرجح، فقد كانت مدينة عربية إسلامية، في ناسها ومعمارها وخفقان قلبها. لم ترحّب بالغزاة المستعمرين، بل صعّرت لهم خدّها، ونفرت منهم نفوراً بيّناً. وكأن ذلك أدهشهم، فالمتسلطون، سواء جاءوا من الداخل أو من خارج الحدود، يفرضون وجودهم بقوة السلاح، ويمشون فوق رقاب الناس، ويتوقعون أن يحبهم الناس. سبحان الله.

أهلُها كانوا خليطاً من سودانيي الشرق وسودانيي الداخل، واليمنيين خاصة الحضارمة، والحجازيين والمصريين والشُوام والهنود والإثيوبيين والإرتريين. كان فيها أيضاً الأتراك والأفغان والفرس. ومن الأوروبيين، وفد إليها بالطبع اليونان والطليان.

توافد عليها الناس من أطراف الأرض، سعياً وراء الرزق الحلال وتحسين الأحوال. من بلاد الهوسة والبرنو والفلاني وشنقيط وديار المغرب. وكما يحدث دائماً حين تتجمع هذه الأخلاط في ظل الرفاهية والحرية، فإن (حضارة) جميلة جذابة نشأت. وقد ضربوا المثل على ازدهار (سواكن) وعُلو شأنها، أن ثرياً من أثريائها واسمه (الشناوي) بنى قصراً له حجرات بعدد أيام السنة وقد صمم بحيث كانت الشمس تشرق على كل حجرة في يوم معين على التوالي، على مدار السنة.

كان بالإمكان إنقاذها حين رحل الإنجليز، فقد كان فيها بقية رمق، ولكن الحكومات الوطنية راحت تفكر وتقدر وتماطل وتسوّف، إلى أن فاضت روحها تماماً وتحولت إلى أطلال يندب فوقها الشعراء، ويقصدها علماء الآثار وعشاق فن العمارة الإسلامية.

قتلها الإنجليز بحجة أن ميناءها ضحْل، وأقاموا ميناء جديدة عند قرية تسمى (محمد قول)، وسموها (بورسودان) كعادتهم في تمويه الأسماء. لكن المدن العريقة لا تموت كلية. تحولت (سواكن) إلى أسطورة مثل طيبة وطروادة وبمبيي وقرطاج. تطايرت أجزاؤها في الواقع والخيال، انتقل بعض أهلها إلى الخرطوم وأم درمان وإلى مدن الجزيرة والغرب، فأحيوها وأضافوا إليها. ومنهم من نزح إلى جدة وبورسعيد وعدن وزنجبار، وبعضهم رحل إلى الميناء الجديدة.

إنما هذه ظلت أسيرة مولدها، فلم تستطع أبداً أن تصير (مدينة) مثل سواكن، أو أن تصنع مثلها حضارة. ازدهرت في بعض السنوات واتسعت، ولكنها ظلت مثل مخيم مؤقت قد يرحل سكانه في أية لحظة. وهي اليوم مدينة بائسة، تصوّر بؤس القطر بأسره. الحركة في

الميناء همدت، والقطارات التي تجيء من داخل القطر، لا تصل إلّا بشق الأنفس. ينضب ماؤها، وتنقطع كهرباؤها. اللهم إلّا الطريق الذي شقه النميري بمساعدات من دول الخليج، والمطار الذي برّتها به أختها (جدة). ويا للعجب لهؤلاء (الجماعة)، يأخذون هبات أهل الخير، ويشتمونهم. وقد أشرعوا لذلك سفهاء شتامين، الله يعلم من أين أتوا بهم.

حدّثني الدكتور سعيد السريحي وهو من جدة ثم هو من مكة أنه إذ هو طفل سمع جدته تغني:

رنـةْ جِـجِـلْ فـي (مـحـمـد قُـولْ)
وحـيـتـهـا فـي (ظُـبـى) عـنـدي
طـابـور عـسـاكـر مـاشـي حـول
جـاب الماهـيـة مـن الـهـنـد

لعل الأغنية أرادت أن تقول، إنه كان أسهل لهم لو (جابوا الماهية) من (محمد قول)، فهي أقرب شُقّة.

بورسودان أقرب إلى جدة، مما تكون بورسودان إلى الخرطوم، وتكون جدة إلى الرياض. وأسوان أقرب إلى الخرطوم، مما تكون أسوان إلى القاهرة، والقاهرة أقرب إلى دمشق مما تكون القاهرة إلى أسوان. هذه الحدود التي رسموها، تقوم في الخيال مثل حيطان من الإسمنت. لو استطعت أن تهدم هذه الحيطان، وتعيد تشكيل خرائط البلاد في خيالك، فسوف تجد عجباً.

لذلك لم يحتج الأمر مني إلى قفزة كبيرة في الخيال. وصلت من القاهرة على طائرة الخطوط السعودية. استقبلني الأستاذ محمد علي

قدس أمين نادي جدة الأدبي بوجهه البشوش. هل هذه أول مرة أزور فيها جدة؟ أبداً. زرتها مرات من قبل. زرتها حاجاً ومعتمراً وفي مهمات رسمية. شتاؤها رائق معتدل مثل بورسودان وبلاد الخليج. صيفها خانق رطب. ولا أذكر لها ربيعاً ولا خريفاً.

يسمونها (العروس)، وهي كذلك بالفعل خاصة في الليل وخاصة في الشتاء. عروسنا هي (الأبيض) في الغرب، نسميها (عروس الرّمال). لها الله من عروس أصابتها سهام الزمان كما أصابت بقية أرجاء السودان. تتوهج رمالها الذهبية في ضوء الشمس، وهي كالمذهولة، تغفو وتنتظر الفرج.

أصحابنا هؤلاء ـ هداهم الله ـ قَلَوْا الأقارب والجيران، وأبعدوا مرماهم جداً، كما قال الشريف الرضي رحمه الله، (يجيبون الماهية) من الهند والسند. الأمر أهون مما تظنون، وأصعب مما تظنون. إنكم لن (تجيبوا رأس كُليب)، ولن (تجيبوا الهواء من قرونه). وليس فيكم عمر بن الخطاب، ولا عمر بن عبد العزيز، ففيم المكابرة؟ وكل هذا العناء (لأيش وعلى أيش)؟

## ١٧

اجتمع السودانيون في بريطانيا بالأمس لتأبين صلاح أحمد إبراهيم، ولم تكن تلك أول مرة، فقد أُبّن من قبل في أماكن أخرى. كان رحمه الله، من أكثر الشعراء إصْغاءً لدقات قلب الوطن. شدا في أفراحه، وبكى في أحزانه، وثار في ثوراته. لذلك لا تنزل اليوم بالوطن نازلة إلّا وجدت لها صدى في شعره، وكأنه حين نادى نداءه الشهير احتفالاً بثورة تشرين الأول/ أكتوبر، كان يحتفل بحدث ما يزال في طيّات الغيب:

هاتِ لي بوقيَ بوقَ العاج لا الآخرَ
واسبقني إلى الساحة خبّرْ صاحب الحانة
أن يرفَع لي الراية.

اتضح وشيكاً، أن الاحتفال كان سابقاً لأوانه، وأن الفجر لم يطلع

بعد. لعله يطلع الآن، فقد لاحت بشائره. شاخصة إليه أبصار الرجال والنساء، المرابطين في الأرض، والمصابرين في المنافي.

يصلنا صوته من وراء الغيب، في جمهرة أصوات الشعراء منذ البنّا والعباسي وتوفيق صالح جبريل وأحمد صالح والتِّنيْ والنّاصر قريب الله وجمّاع ومحمد عبد الحي والمحجوب والمجذوب، وكل الذين صدحوا بالعامية والفصحى، في التغنّي بوطن هو الآن مهدّد بالزوال.

نسمع الصوت، وكنّا قد سمعناه من قبل، حين كان الشاعر موجوداً بيننا، لكن الموت قد أضاف إليه الآن كآبة وعُمقاً وغرابة فكأننا نسمعه لأول مرة:

باللّه يا نجوم كيف حال إخوتي؟
وكيف حال رفقتي، وكيف حال شعبيَ العظيم؟
شعبي الذي أحببتهُ حبّ الذي قد عشقا.
كيف تراه الآن، هل تراه بات جفنه مؤرّقا؟
وهل تراه بات حبلُ شمله ممزّقا؟
وهل تراه بات في السّجن القَوا ومرهقا؟
وهل تراه واجه النّيران مثل يوم (كررِي) فاحترقا؟

نعم يا رحمك الله. كل ذلك كائنٌ كما وصفت.

**وهكذا اجتمعنا لتأبين صلاح أحمد إبراهيم في باريس، ثم في أصيلة في المغرب، ثم منذ أيام في لندن.**

احتشد السودانيون كعادتهم في الحفاوة بالموتى والأحياء، وهم بالموتى أشد حفاوة.

وقد نوّه الدكتور خالد الكِدْ، الذي كان يقدّم المتحدثين، أن السودانيين يؤخرون الثناء على الإنسان إلى ما بعد وفاته، ويقولون «إن شاء الله ربّنا ما يجيب يوم شكرك»، أي أنهم بذلك يدعون له بطول الأجل.

والدكتور خالد الكد، قد رُزئ في أخيه النابه طه الكد، وابن عمه النابغة صديقنا العزيز، عثمان حسن أحمد الكد. وهم من مدينة أم درمان الباسلة، مدينة صلاح أحمد إبراهيم وعلي الملك. لذلك كان في تلك الليلة، رغم أنه حاول أن يسرّي عن الناس، كما قال متمم ابن نويرة:

فقلتُ لها أن الشجى يبعث الشجى
دعيني فهذا كلّه قبر مالكِ

وكانت فاطمة أحمد إبراهيم موجودة بالطبع. فاطمة التي قال عنها صلاح:

في كل ما تحبه فاطمةٌ من لهب مقدّس، من
غضبٍ على الهوان، من توهّج الإخلاص،
والتفاني في خلاص أختها المعذّبة.

إنني أذكرها في البرلمان السوداني، منذ قرابة ثلاثين عاماً، حين كانت تنبري لرئيس الوزراء محمد أحمد محجوب. تقف ممشوقة

مثل السيف. كأنها أسماء ذات النّطاقين. لها الله! كُتب عليها الصّبر والنّضال، كما كتب على السودان. بل إنها صارت رمزاً لصلابة السودان.

شاطرنا تلك الأمسية، عدد من أشقائنا، من مصر والعراق وسورية والجزائر وغيرها، من محبي الشاعر وأصدقائه، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، الشاعر العراقي الكبير، بلند الحيدري، الذي أَنْقَض ظهره كثرة ما رثى من الأصدقاء والشعراء، وطول ما حن إلى ضفاف دجلة والفرات.

ثم، يا سبحان الله، ما هي إلّا أيام، حتى اجتمع السودانيون مرة أخرى، في مكان آخر في لندن. كانوا هذه المرة يحتفلون بعيد استقلال السودان. وقد اختلط عليَّ الأمر، فما أشبه الاحتفال بالتأبين. وفيم الاحتفال؟ مضى على استقلال السودان، خمسة وثلاثون عاماً حسوماً، وهو في واقع الحال، كأنه لم يولد بعد. كل شيء مؤجّل. قضية الجنوب، وقضية الحكم، وقضية الانتماء.

وا رحمتاه للسودانيين. انظر إليهم جاءوا من إدنبرا ومانشستر وسوانْسي ودبْلن وليدز واكستر وأكسفورد وردنج. معهم نساؤهم وأطفالهم، وأحياناً آباؤهم وأمهاتهم. لم يتركوا بلادهم بمحض إرادتهم، ولكنهم أُخرجوا منها اضطراراً. فيهم الذي قطعت ساقه والذي كسرت ذراعه والذي يحمل ظهره آثار السياط والذي أخرج من عمله بلا ذنب، والذي دخل السجن بلا جريرة.

مذهولون عن أنفسهم، لأنهم لم يتعودوا على الاغتراب، لكنهم يصبرون ويتجملون «متحزّمين ومتلزّمين» كما يفعل السوداني حين

يعضّه الدهر، يعلق بهم ذلك السّمت الخاص، في عيون الأطفال، وأصوات النساء ووجوه الرجال، ذلك المذاق الذي تغنّى به الشعراء، وتغنّى به صلاح أحمد إبراهيم خاصة. فيهم براح الحيشان وطيبة الجيران ووضوح السماء واتّساع الآفاق ودفء العشيرة.

أشاعوا الدفء في قلب هذا الزمْهرير، وتجمّعوا في الشتات، واحتفلوا وليس ثمة ما يدعو للاحتفال، وتشبّثوا بالوطن المفقود، فعرضوا الحنّة والحرجل والكركدي وأطباق السعف الملوّنة، كأنها بقايا متاع من دار جرفها السيْل.

وكان صلاح أحمد إبراهيم، ماثلاً بينهم كعهده، يرثي لحالهم، ويعجب من أمرهم.

سلامٌ على موطني في البلاد، على أهله الخيرة الطيبين
ملاذ الغريب، سياج الضّعيف، الحماة الأباة ليوث العرين
ذوي الأنفس الرائقات العذاب، عليها من الحق نور مبين
فضائلُهم دون شحّ تجمّ، بلا ضجّة أو أذى أو ظنون
من الرّوح، من فلذات اللّسان، من القسمات، من الرّاحتيْن
كلفْتُ بهم وأنا بينهم، وزدتُ هدىً بالنّوى ويَقين
بذوراً حملت أنا سرّها، وجذوراً غذتني جنين
فمنها الشّذى والجنى والمفيء المفيد ومنها الأذى والمنون
وكم مرّة قلت فيها لنفسي وأفشيت ما قلت للعالمين:
أنا منهمُ وبهم ولهم وخدّامهم لو همُ يأمرون
يعذّبني أنهم في العذاب ويؤرّقني أنهم نائمون

فهم في قيامي، وهم في منامي وهم في اضطرابي وهم في السكون

وهم في دمي، في رؤى ألمي، في شبا قلمي، في الفِنا، في اللّحون

■ ■ ■

اجتمع شمل الجالية السودانية المبعثرة في أطراف المملكة المتحدة، ذات يوم سبت غائم بارد في قاعة أعارتهم إياها مدرسة في حيّ (بادنْجتُن) غرب لندن، وهو حي له صلات قديمة بالسودانيين، منذ أخذ الإنجليز يرسلون البعثات إلى بريطانيا في الأربعينيات. كان الدارسون في لندن، يسكنون إما في شارع (سَسكْس قارْدنْز)، أو في حي (كوينْزْويَ) إلى الغرب قليلاً من (بادنْجتن). وعلى عادة السودانيين، أنهم يألفون الأماكن والناس، فإنهم ما يزالون يكْثرون في هذين الحيَّيْن.

كانوا تلك الأيام، يتعاملون كلهم مع (بنك) واحد في (بادنجتن) ما يزال موجوداً إلى اليوم. تصلهم منحهم الدراسية عن طريقه، طوال عهد الإنجليز، وفي حكومات الاستقلال التي جاءت بعدهم، إلى أن جاء هذا العهد. كانت المنح تفي بحاجيات الدارس، بل كانت من أسخى المنح التي يتلقاها الدارسون من كافة بلدان العالم الثالث.

كان التعليم في السودان على نفقة الدولة، داخل السودان وخارجه. وهي سياسة شرّعها الإنجليز، وحذا حذوهم كل الذين حكموا بعدهم حتى أبطلها الحكّام الحاليون. بفضل تلك السياسة تعلّم أبناء الفقراء، وجمهرة السودانيين إلى اليوم في عداد الفقراء. نبغ أطباء من قرى الجزيرة، وفقهاء في القانون من قرى كردفان، ومهندسون

من أطراف دارفور، وعلماء في الكيمياء من جبال النّوبة، وعلماء في الزراعة من أعالي بحر الغزال، واقتصاديون من نواحي ملكال وجوبا وواوْ، وفطاحل في الرياضيات والفيزياء وعلوم الذرة من قرى شمال السودان.

بهذه الطريقة أيضاً، تعلّم إخواننا الذين يصرّفون الأمور في السودان هذه الأيام ـ بقدر ما يتأتّى لهم من تصريف الأمور، فهم أكثر من غيرهم، يدركون أن الأمر للّه من قبلُ ومن بعد.

لكنهم ردّوا الجميل للوطن، أنهم عطّلوا تلك السياسة. أوقفوا البعثات، وأغلقوا (الدّاخليات)، المساكن التي كانت تؤوي الطلبة، فيقيمون ويأكلون ويشربون بالمجان. وأكثر من هذا مما يضيق المجال عن حصره أصبح يتعلم الآن أبناء القادرين، ومن يقدر في ديار السودان هذه الأيام؟

وأضافوا ضغْثاً، أنهم شرّدوا أصحاب الاختصاص والعلم والدّراية، ممن كان بوسعهم أن يعينوهم على حلّ المشكلات الكثيرة التي يواجهونها. وقد ذكر (ألدو أجو) الذي كان منذ شهر من أعمدة هذا الحكم، ثم استقال ونفذ بجلده، أن هذا العهد قد أخرج خمسين ألف إنسان من أعمالهم إلى الآن، من الجيش والشرطة والخدمة المدنية.

إلى غاية عهد النميري، ثم العهد البرلماني الذي قام هذا الحكم على أنقاضه، كان خروج عامل واحد من عمله، يزلزل الأرض. كيف الآن يقذفون بهذه الحشود الحاشدة، كما يُزاح التّبن من الحقل؟ كل واحد منهم، وراءه عشرة على الأقل، كما تقتضي أعراف أهل

السودان، يتكفّل بمقتضيات معيشتهم. أليسوا مواطنين معلّقين بذمة الدولة؟ أمْ لا، فلأي شيء تقوم الدول؟

كان زياد يقول لأهل العراق «والله لا نصل إلى الحق فيكم، حتى نخوض إليه الباطل خوضاً».

إنها فلسفة خاسرة دلّل التاريخ على خسرانها. لكن لنقبل جدلاً أن ذلك يجوز. لقد رأينا لحدّ الآن، باطلاً كثيراً من إخواننا هؤلاء. فمتى يروْن أنهم سوف يصلون إلى الحق؟ وكم بقي لهم من باطل يخوضونه بعد؟

رحم الله الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ورضي عنه. ذلكمْ أحرى أن يكون الأسوة لا زياد بن أبيه.

روى الإمام ابن الجوزي رحمه الله قال:

«حدّثنا الثّقة أن عديّ بن أرْطأة، كتب إلى عمر بن عبد العزيز:

**«من عدي بن أرطأة، أما بعد: أصلح الله أمير المؤمنين. إن قِبَلي أُناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله عزّ وجل مالاً عظيماً لست أقدر على استخراجه من أيديهم، إلّا أن أمسّهم بشيء من العذاب. فإن رأى أمير المؤمنين أصلحه الله أن يأذن لي في ذلك أفعل».**

**قال، فكتب له عمر بن عبد العزيز:**

**«أما بعد: فالعجب كلّ العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر، كأني لك جُنّة من عذاب الله، وكأن رضائي عنك يُنجيك من سخط الله عزّ وجل، فانظر من قامت عليه بيّنةٌ**

عدول، فخُذْه بما قامت عليه به البيّنة. ومن أقرّ لك بشيء فخُذه بما أقرّ به. ومن أنكر فاستحلفْه بالله العظيم وخلّ سبيله. وأيْمُ الله، لأن يلقوا الله عزّ وجلّ بخياناتهم، أحبُّ إليَّ من أن ألْقى الله بدمائهم. والسلام».

كذلك روى ابن الجوزي قال:

«حدّثنا ضمْره عن ابن شوْذب أن صالح ابن عبد الرحمن وصاحباً له، وكان عمر بن عبد العزيز قد ولاّهما شيئاً من أمر العراق، كتبا إليه أن الناس لا يصلحهم إلّا السيف. فكتب لهما: «خبيثيْن من الخبَث، رديئيْن من الرديء. تعرضان لي بدماء المسلمين؟ لعمري ما أحدٌ من الناس إلّا دماؤكما أهْون عليَّ من دمه».

تقول ذلك زمانٌ ولّى وهيهات أن يعود. صدقت. ولكن ألا نتنسم عطره؟ ألا نقيس به مزاعم الذين يجيئوننا آخر الزمان، ويرفعون المصاحف على أسنّة الرماح.

■ ■ ■

كان يوجد في حي (بادنْجتُن) تلك الأيام، بيت للسودانيين، فطبعوه، وطبعوا الأحياء المجاورة له بطابعهم. كانوا عدداً، دارسين وزواراً، ومبعوثين في بعثات تدريبية قصيرة. وكانت أحوالهم ميسرة، فنشأت تجارات تحقق لهم مطالبهم. حوانيت بقالة، ومحلات لبيع الأقمشة والثياب النسائية، ومطاعم وغيرها.

كان يوجد مطعم يوناني قريب من بيت السودان، يقدم طعاماً يذكّر

السودانيين، ولو قليلاً، بطعام بلادهم.

كانت المطاعم الإنجليزية هي الغالبة تلك الأيام، وكان الطعام الإنجليزي قُحّاً لا يكاد يساغ. ثم فتح مطعم هندي في (برد ستريت)، وما كنتَ تجد مطعماً هندياً تلك الأيام، إلّا بعد جهد، فأقبل عليه السودانيون، لأنهم وجدوا فيه البصل والثوم والشطة والليمون، وأصنافاً من طبخات اللحوم، تذكّر بـ(اليخني) و(كباب الحلّة). ووجدوا خُبز الـ(شباتي) الذي يقرُب من (القرّاصة).

هذا والشيء بالشيء يذكر، فسَّر صاحب (اللسان) أن كلمة (قرّاص) من بعض معانيها «الذي جاوز الحد حتى حمض». وضرب مثلاً قول الشاعر:

يا رُبَّ شاةٍ شاصِ
في ربربٍ خماصِ
يأكلن من قرّاصِ
وَحَمْصَصيصٍ آصِ
كفِلق الرصاصِ

و«القرّاصة» السودانية خبزٌ عريضٌ مستدير يميل إلى الحموضة في الغالب، يعمل على صاجٍ محمى. وقال الشيخ إن من معاني «قرّاص» أيضاً «الغلَظ» وخبزُ أهل السودان هذا يكون غليظاً.

أما الرقيق منه فيسمى (الكسرة). وهذا وذاك يؤكلان باللبن أو بأدام يسمى (المُلاح). وفسر الشيخ أن (ملح) من معانيها اللبن. وقال (يقال بين فلان وفلان ملح وملحة أي بينهما حرمة).

ولعلنا أسمينا كل أدام (ملاح) لأنه كان لبناً في الغالب. وربما يكون كل ما جرى لأهل السودان إلى اليوم هو بسبب (الكسرة والملاح). وذلك كما قال أبو الطيب رحمه الله:

ومـــرادُ الـــنـــفـــوس أهـــونُ مـــن
أن نـــتـــعـــادى فـــيـــه وأن نـــتـــفـــانـــى

وهكذا ترى يا أصلحك الله، أنه كما يكون الخبز قُرّاصاً، كذلك تكون بعض نظم الحكم. وبوسعك أن تقول (هذا حكمُ قُرّاص)، أي أنه حامض وغليظ.

ويذكّرني هذا، ولقد تُذْكرُ الخطوبُ وتُنسى، كما قال أبو عبادة، وصفاً سمعتُه من السيد الصادق المهدي، حيّاه الله وحفظه ورعاه، فهو من المرابطين المصابرين، قال إن الحكم الدكتاتوري منه (المخفّف) ومنه (المغلّظ). وما أظن (المغلظ) هذا إلّا أنه (القُرّاص).

كان ذلك عام ستة وستين في دار الثقافة بالخرطوم في محاضرة من أجمل ما سمعت من محاضرات. كان الصادق المهدي قد انتُخب توّه رئيساً للوزارة وهو في الثلاثين من العمر. لعله تعجل الأمر، كما نرى ذلك اليوم، ولكنه كان رغم صغر سنه، قويَّ الحجة، وثّاب البديهة، ناصع البيان. كذلك كان رؤساء الوزارة قبله. محمد أحمد محجوب رحمه الله، وقد كان لا جدال أميراً من أمراء البيان. وإسماعيل الأزهري رحمه الله الذي جمع إلى ذلك، بساطة العبارة والاقتراب من إدراك عامة الناس، وذكاء شديداً يحسبه الذي لا يعرفه، أنه غفْلة.

أذكر محاضرة السيد الصادق المهدي تلك كأنها حدثت بالأمس

القريب. ضاقت دار الثقافة بالناس، كما حدث لنزار قباني قبل ذلك بأشهر قليلة، في المكان نفسه، حين جاء لينشد شعره الجميل، وأذهله إقبال الناس، وقال قولته الشهيرة «كان السودانيون يتعلقون بفروع الأشجار مثل عناقيد العنب الأسود». نعم، كانوا في أحسن أحوالهم تلك الأيام. أناسٌ أحرار في وطن حر.

قدّم الصادق المهدي في تلك الأمسية أستاذنا الجليل نصر الحاج علي من رجال التعليم الروّاد ومن أوائل مديري جامعة الخرطوم. رجل فذّ بحق. وقد أسعدني الحظ أن أتتلمذ على يديه، ثم عملت معه تلك الأيام في لجنة كوّنها أستاذنا الآخر النابه مندور المهدي، وقد كان وكيلاً لوزارة التربية، لدراسة قضايا تعليم اللغة الإنجليزية في السودان. كان نصر الحاج علي أكبرنا سناً وشأناً، ورغم ذلك فقد كان أكثرنا دأباً ودقّة ومثابرة. كان رجلاً واسع الثقافة عظيم الجاذبية، مع بساطة وتواضع. كانت صحبته في تلك اللجنة تجربة لا تُنسى من تجارب العمر. رحمه الله رحمة غامرة، ومندور المهدي، وكل ذلك الجيل الصالحين الذين ما أظن الزمان يجود بأمثالهم.

في تلك المحاضرة في دار الثقافة عام ستة وستين، لخّص السيد الصادق المهدي فلسفته في الحكم. كان في الثلاثين من العمر، وقد مضى على ذلك قرابة ثلاثين عاماً، ولكن تلك الفلسفة لم تتغير إلى يومنا هذا، فيما أرى. وليس ذلك دليلاً على الجمود، بل هو دليل على نفاذ البصيرة في تلك السن المبكرة.

تحدّث عن مشاكل الحكم في العالم الثالث، وفي السودان على وجه التخصيص، واستعرض الأسباب التي تؤدي إلى الثورات

والانقلابات العسكرية. وسأل كيف يتأتى الإجماع اختياراً في مناخ من الحرية، دون اللجوء إلى فرض (إجماع) بالقوة. ومن سوء بخت السودان أن السؤال ظل طافياً، يحمله تيار السنين، كما يطفو جذع الشجرة على سطح النهر، لا يجد شاطئاً يُرسى عليه.

قدّر للصادق المهدي أن يعود إلى رئاسة الوزارة بواسطة انتفاضة رجب العظيمة. ووجد الإجماع الذي أراده. والتفّ الناس حوله من جميع المشارع والمشارب، وقالوا هذا هو الزعيم الأمثل الذي يعبر بنا صحراء (عتمور) الأحداث في تلك المرحلة التاريخية ويوصلنا سالمين.

قالوا دونكم هذا الفتى. فهو حفيد الإمام المهدي البطل، وخريج جامعة أوكسفورد، وقد جرّب الحكم، وعركته الأحداث. وقد اجتمع له ما لا يجتمع للكثيرين، من سماحة طبع وتوقُّد ذهن وفصاحة لسان.

إنما ويا للخسارة، يرى كثيرون أنه لم يثمر ذلك الإجماع، ولم يمسك أعنّة الأحداث بالعزم المرجو، وأنه كان مسؤولاً إلى حد كبير عن انهيار العهد الديموقراطي الأخير، ومجيء هذا العهد (الشمولي) الذي لا ندري هل هو (مخفّف) أم (مغلظ) أم (قُرّاص). ولكنه، فيما يبدو لنا ليس شيئاً واحداً، ولا حكماً واحداً، بل مجموعة أشياء ومجموعة حكومات. وهم أنواع، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك «كانوا طرائق قدداً!».

■ ■ ■

جلس إلى يميني على المنصة، الدكتور عبد السلام سيد أحمد، من أساتذة جامعة الخرطوم الذين أُخرجوا من أعمالهم اضطراراً في حركات (التطهير) المتوالية التي أقدم عليها هذا العهد. وجلس إلى يمينه السيد هاشم محمد أحمد الذي كان مديراً عاماً للسكك الحديدية: هو أيضاً أخرجوه من عمله. إلى اليسار مني شاب صحافي اسمه أحمد القرشي إدريس، لم أعرف قصته، ولكن القصة المؤثرة التي حكاها لنا خلال الندوة، تدل على أنه لم يترك السودان عن طيب خاطر.

تصدّر المنصة الدكتور خالد المبارك، الذي أدار الحوار. هو أيضاً من أساتذة جامعة الخرطوم الذين لم يجد هذا الحكم ضرورة للاحتفاظ بهم. كان واضحاً في النشاط الثقافي في الخرطوم، في الجامعة والأندية والصحافة والمسرح. لا بد أنه ترك فراغاً هائلاً، ولكن لعل النشاط الثقافي ليس على رأس اهتماماتهم. إنه الآن لاجىء في (كيمبردج) حيث يسكن ويعمل. ثم فاطمة أحمد إبراهيم، العتيدة العنيدة المصابرة أجبروها على الهجرة والاغتراب، لأول مرة في حياتها وقد حق لها أن تسكن وتطمئن بين أهلها وذويها في أم درمان. كان أخوها صلاح يؤنس وحشتها من باريس، يكلمها بالتلفون، ويزورها كثيراً في لندن. ثم شاء الله أن تنفصم تلك العروة فجزعت عليه أيما جزع، وقد كانت قبل صبورة متجملة. وحق لها أن تجزع لكن الله سبحانه وتعالى، رأف بها، فجاءها ابنها أحمد، بعد أن أكمل دراسة الطب في جامعة الخرطوم. إنه ابن الشفيع أحمد الشيخ، الذي مشى إلى الموت رابط الجأش، كما مشى آباؤه الجعليوّن من قبل.

ولا بد من القول، والحق يقال، أن الإنجليز كانوا كرماء مع

السودانيين فأعطوا عدداً منهم حق اللجوء السياسي، وسمحوا لأعداد بالإقامة والعمل، وقبلوا آخرين في جامعاتهم. وقد رأيت سفيرهم المطرود من الخرطوم يقول في التلفزيون «السودانيون شعب كريم مضياف، يعيش في ظروف صعبة». لم يزد على ذلك.

هذا وكان صديقنا الصحافي الإذاعي العريق، محمد خير البدوي، يجلس في الطرف الآخر من المنصة، على يسار فاطمة أحمد إبراهيم.

عجبت للسودانيين. كانت كثرة الحاضرين في تلك القاعة في (بادنجتُن)، من المعارضين للحكم القائم، وبعضهم لقي عنتاً غير قليل. ورغم ذلك لم يهتف أحد بسقوط النظام، ولم يذكر أحد أياً من زعمائه بسوء، ولم يحدث هرج أو شغب. وقد عبّر المتحدثون في الندوة عن شهادات دامغة للحكم، برصانة وتجرد. كان الناس مشغولين بما هم فيه، يبحثون عن مخرج، يغلب على وجوههم التفكير والحزن، كأنهم لا يدرون كيف وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه.

بعد ذلك بنحو أسبوعين، شاركتُ في اجتماع آخر في مكان آخر في لندن، للاحتفال أيضاً بالذكرى الثامنة والثلاثين لاستقلال السودان. وكانت كثرة الحاضرين من المؤيدين للحكم القائم. كأن السودان استقلَّ مرتين، مرة لهؤلاء، ومرة لأولئك. إنما السودانيون هنا، مثل السودانيين هنالك. الوداعة نفسها والرصانة نفسها، والتفكير والحزن. والإحساس بأن ثمة شيئاً ما ليس صحيحاً، وأن الخطأ يمكن إصلاحه إذا خلُصت النيّة وصحّ العزم.

كان شملهم مجتمعاً إلى عهد قريب، يحتفلون كلهم في مكان

واحد، في بيت السودان. وقد وجد السيد عبد الرحمن المهدي رحمه الله، أول العهد بالاستقلال، في زيارة له للندن أن بيت السودان في حي (بادنجتن)، لم يعد يتسع للسودانيين، وكانت البعثات قد أخذت تتزايد، فاشترى ثلاثة بيوت متلاصقة في (رَتْلَنْد قيت) في حي (كنْسنجتُن) العريق، وأهداها إلى حكومة السودان.

ذلك كان بيت السودان، وكان ملاذاً للسودانيين بحق. يموج بالحركة والنشاط. فيه غُرف يقيم فيها المبعوثون أول وصولهم، إلى أن يتعرفوا على البلد، ويجدوا لهم سكناً وغرفاً ينزل فيها الطلبة الذين يجيئون من خارج لندن في العطل، والطلبة الذين يجيئون أحياناً من البلاد الأوروبية الأخرى. وكانوا يقدمون الطعام السوداني، خاصة في عطل نهاية الأسبوع.

ما كان شهر يمرّ دون أن تحدث مناسبة يلتئم فيها شمل السودانيين، حفلات عرس، وحفلات وداع، وحفلات استقبال. وكل ثلاثة أو أربعة أشهر، تُحضر الدولة على نفقتها مطرباً كبيراً من السودان. جاء أحمد المصطفى وحسن عطية، وعبد العزيز داءود، وعبد الكريم الكابلي، وعثمان حسين وغيرهم.

وكان في بيت السودان مكتب ضخم للملحقية الثقافية وشؤون الطلبة، أشرف عليه أساتذة أجلاء أمثال عبد الفتاح المغربي وبشري عبد الرحمن وعبد الحليم علي طه، وكلهم من رجالات التعليم الأوائل، رحمهم الله جميعاً. ثم جاء بعدهم إبراهيم عبد الله نور، والدكتور محمد إبراهيم الشوش والدكتور أحمد البشري والربيع حسنين وحسن أحمد يوسف.

كانوا، إلى جانب رعايتهم للمبعوثين، دائمي التنقل في أنحاء بريطانيا في أنديتها وجامعاتها ومحافلها، ناطقين باسم السودان، في تاريخه وشعبه وآثاره وتطلعاته.

كل هذا الإشعاع قد مات. أوقفوا البعثات، وأغلقوا بيت السودان، واستغنوا عن مكتب الملحق الثقافي. لا عجب أن العلاقات قد ساءت، فطردت حكومة السودان السفير البريطاني من الخرطوم، وردّت الحكومة البريطانية بأن طردت السفير السوداني من لندن.

نعم لا عجب أن يحدث ذلك، لأن العلاقات بين الأمم، ليست لعباً وشطارة، ولكنها بشرٌ يتعامل مع بشر، وعقولٌ تحاور عقولاً، ومصالح تعطي وتأخذ، وحضارة تُلاقي حضارة.

ما أبعد الشقة بين اليوم والبارحة، بين السودانيين المشتتين الضائعين، المجتمعين في هذه القاعة في (بادنجتن)، والسودانيين في احتفالاتهم في بيت السودان تلك الأيام يومئذٍ، كانوا متفائلين بأنفسهم، واثقين في مستقبلهم، يحسّون أنهم ينتمون إلى وطن فتي ناهض، يصرف أموره قادة ذوو دُربة وحكمة. فيه خدمة مدنية يُضرب بها المثل في الكفاءة والنزاهة، ونظام تعليمي بُني على أسس متينة، ومعهد للتربية في بخت الرضا، ليس له نظير في أفريقيا، وجامعة هي أفضل جامعة في أفريقيا باستثناء مصر، وأكبر مشروع زراعي تملكه الدولة في أفريقيا، ونظام كفء للسكك الحديدية والمواصلات النهرية وخدمة طبيّة عمّت الريف والحضر والبادية. وطن له جيش، على صغر حجمه له شهرة واسعة في البسالة والضبط والربط، ولم تكن قد لوّثته بعد، الانقلابات العسكرية وشهوة الحكم.

في تلك الأيام، لم تكن الحكومة تستطيع أن تخرج موظفاً من عمله دون مبرّر، فقد كانت توجد هيئة مستقلة للخدمة المدنية، يرفع إليها الموظفون ظلاماتهم، وتفرض قراراتها على الحكومة. كانت أشبه ما تكون بنظام الـ (أُمبُدْ سْمان) الذي أخذ به البريطانيون منذ سنوات قليلة فقط.

وطن قضاؤه مستقل، وبرلمانه مُنتخب، وصحافته حرّة. علاقاته طيبة مع الأقارب والجيران ومع العالم أجمع. لذلك كان السوداني تلك الأيام ـ وليس هذا من قبيل المبالغة في شيء ـ يحس أنه أقوى وأكثر وأغنى، مما هو في الواقع. السماء فوقه صافية، والآفاق حوله ممتدة، والشمل ملتئم مجتمع، وإحساسه بالحرية غامر كاسح، كأن لا شيء ولا أحد، يستطيع أن يحرمه إيّاها.

■ ■ ■

في ذلك الاجتماع في (بادنجتُن) حكى الشاب الصحافي أحمد القُرشي إدريس، قصة ثلاثة من أصدقائه توثقت صلته بهم أيام الدراسة في جامعة الخرطوم. فعل ذلك بأسلوب زاد من تأثيره، بساطتُه وخلوّه من الانفعال.

حكى قصة شاب من جنوب السودان اسمه (مشار) وأسمى نفسه (أُوشيك مشار). (أوشيك) اسم بجاوي من شرق السودان، وقد تعمد الشاب الجنوبي حين تسمّى به، أن يؤكد أنه ينتمي إلى السودان كله، وليس للجنوب فحسب. وروى أحمد القرشي أن (أوشيك مشار) كان طالباً نابهاً ومواطناً مخلصاً يؤمن إيماناً عميقاً

بوحدة السودان، ولا يضمر أياً من الحزازات والأحقاد التي يضمرها بعض الجنوبيين نحو الشمال. وكان يحب اللغة العربية ويجيدها كتابة ونطقاً.

ثم حكى قصة صديقين شماليين، كانا أيضاً نابهين، مقبلين على الحياة، يبشران بخير كثير.

حياة كل واحد من هؤلاء الشباب، كما روى أحمد القرشي، انتهت نهاية مأساوية، في ظل الظروف الراهنة. الذي دخل السجن، والذي شُرِّد من عمله، والذي قضى نحبه في ظروف محزنة.

لم يقل أكثر من ذلك. لم يُلْق اللوم على أحد، ولم يستخلص أية نتائج. ترك الوقائع التي رواها بتجرد يدعو للدهشة، تتحدث عن نفسها.

التجرد أيضاً، كان سمة حديث هاشم محمد أحمد، الذي كان مديراً عاماً للسكك الحديدية. هو أيضاً تكلم بحياد وبساطة عن الانهيار الذي حاق بالسكك الحديدية في السودان، بعد أن كانت الوسيلة الرئيسية للنقل.

كانت السكك الحديدية مزدهرة في ظل الإدارة البريطانية، لأنهم كانوا يؤمنون بأنها وسيلة النقل المُثْلى في قطر مترامي الأطراف مثل السودان، وأنها أقل تكلفة من النقل الجوي والنقل البري بواسطة شبكة من الطرق. وقد أقرّت الحكومات الوطنية في عهود الاستقلال الأولى، هذه السياسة فتوسعت في السكك الحديدية، ومدّت خطوطاً إضافية إلى عمق الجنوب وأقصى الغرب. وذكر

السيد هاشم محمد أحمد، أن إدارة السكك الحديدية أعدّت خططاً لمزيد من التوسع، ولكن كل ذلك قد توقف.

قضبان الحديد، كانت تمتد في أطراف السودان، كما تمتد الشرايين في الجسم. وكان المواطنون في قرى الجزيرة، ونجوع الشمال والشرق والغرب، يسمعون صليل العجلات وصفير القاطرات، في جوف الليل وفي ساعات الفجر الأولى، وهي غادية رائحة، فيحسّون لا شك، أنهم ينتمون إلى وطن حي متحرك.

همدت الحركة، ودفنت الرمال القضبان، وتحولت المحطات إلى أطلال. حتى محطة الخرطوم في آخر شارع القصر الجمهوري، وقد كانت معلماً من معالم المدينة، قد هُدِّمت. هكذا ينتشر الإحساس بالانهيار في النفوس، وحين يتأصل هذا الشعور، يصبح النهوض معضلة.

وأعربت السيدة فاطمة أحمد إبراهيم عن مخاوفها، أن تؤدي الظروف المعيشية القاسية التي يعانيها الناس، إلى فساد الأخلاق. هذا يكون محزناً حقاً لو حدث، وأرجو ألّا يحدث، فقد كابد السودانيون محناً عسيرة من قبل، خرجوا منها سالمين. ويكون من سخرية الأمور، أن حكماً جاء يدعو إلى إصلاح الضمائر والنفوس، يمْخض أوضاعاً اقتصادية قاسية، تشجّع على خراب النفوس.

**إنما الخائفون من عواقب الأمور، سوف يجدون ولا شك، دليلاً في الحادث المؤلم الذي حدث مؤخراً ولم يكن يخطر للسودانيين على بال، أن يعتدي مسلحون على حرمة المسجد في صلاة الجمعة**

ويطلقوا النار على المصلّين، فيقتلون ويجرحون. مثل هذا لم يحدث في السودان طوال تاريخه.

لعله المناخ السائد يشجع على العنف. وقد أصاب السيد الصادق المهدي حين قال، إن هذا الحادث نتاج طبيعي للمناخ العام الذي أشاعه هذا العهد.

ولا يُنكر أنه بثّ جواً من الهستيريا والتوتر والرعونة. بل إن مقْدمَه في حد ذاته، كان من أعمال العنف، لأن الانقلاب العسكري على سلطة مُنتخبة، مهما ساء رأيك فيها، لا يختلف من حيث النوع، عن إطلاق النار على المصلين في المسجد.

الذي يمزّق ثوب الشرعية، ثم يتدثّر بالثوب الممزق، لا يعجب أن يُخرج الله له مَنْ ينازعونه الأمر، ويتربصون به الدوائر.

العنف يولّد العنف كما قالوا، والفوضى لا تجيء بغير الفوضى. وما أصدق ما قال الحكيم العربي: «من ولّد الشرّ أنبت له شجراً أوراقُه الندم وثماره الحسرة. ومن ولّد الخير أنتج له فراخاً تطير بالسرور».

كأن العدْل مغناطيسٌ أو كهرباء تسري في الجو، وكذلك الجوْر، فيصحّ الزمان أو يعتلّ. وقد روى أشياخنا رحمهم الله، أنه لما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قالت الرّعاة في أعالي الجبال «مَنْ هذا الخليفة الصّالح الذي قام في الناس؟»، فقيل لهم «وما علْمكم بذلك؟» قالوا «إنا إذا قام على الناس خليفة صالح، وجدنا أن الذئاب والسّباع، لا تتعرّض لشياهنا».

وحدّثوا عن موسى بن أعين، قال «كنا نرعى الشاء بكرْمان في خلافة عمر بن عبد العزيز، فكانت الشاء ترعى بجوار الذئاب في مكان واحد. فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب لشاة، فقلنا «ما نرى الرجل الصالح إلّا قد هلك. فسألنا فوجدنا أنه قد مات في تلك الليلة».

أحمد لجامعة (بوسطن) أنها يسّرت لي أن أعود، ولم تطل غيبتي، إلى ذلك البلد العجيب المحيّر. كلما أزوره أزداد إعجاباً وأزداد غيظاً، وأزداد حيرة.

ومهما رأيت من أمريكا ومن سياساتها في إقليمنا، التي قد لا تجد لها منطقاً ولا عقلاً، فأنت لا تستطيع أن تنكر عفوية أهلها وطيبتهم، خاصة إذا كنت مثلي، قد عايشت الأنجلوسكسون في معقلهم الأصل، وعانيت من تزمتهم وتكلّفهم.

ها هنا يبدأونك بالتحية، وإذا حييتهم يحيونك بأحسن، ويبتسمون كثيراً، وما لهم لا يبتسمون ووراءهم كل هذا الإنجاز الطويل العريض؟ هذا، والقوم على ضفاف (التمز)، وقد خبرناهم أكثر من غيرهم، ورغم إعجابنا بكثير من فكرهم وأسلوب عيشهم، فهم كما

قال صاحبنا «جزيتُ على ابتسام بابتسام».

قلت مرة لأستاذ أمريكي لقيته في جامعة (براون):
«كيف تكونون بهذه الطيبة، ويكون لكم كله هذا العلم والذكاء، ويكون حكامكم بهذا الصّلف والغباء؟».

ابتسم الرجل، ونظر إليَّ كالمعاتب، وأدركت فوراً أنه ما كان يحق لي أن أسأل ذلك السؤال، فأنا من بلد، شعبه ما شاء الله ذكاءً وطيبةً وتحضّراً، وحكوماته ما شاء الله بلادةً وجلافة، وهل أقول (همجيّة) في بعض الأحيان؟ وقد قال رجل الأعمال السوداني لرجل الأعمال الياباني، وقد أرهقه في التفاوض على عقد أو صفقة:

«أليس عجيباً أن تكونوا بهذا الغباء، وتنجزوا كل هذا الإنجاز؟».

ابتسم الياباني، ربما بسخرية أكثر مما فعل الأميركي، وقال له:
«ليس هذا هو العجيب. العجيب إنكم بكل ذكائكم لم تنجزوا شيئاً».

صدق، وكأننا نسخِّر الذكاء الذي منحنا المولى عزَّ وجلّ، للهدم وليس للبناء، وحسبك أن تنظر اليوم عند ملتقى النيلين، وترى أي خراب يحصل باسم الإصلاح.

قلت دعتني جامعة (بوسطن) لإعطاء محاضرات، وما لي وللمحاضرات؟ هذا أمر يحسنه الزعماء والسياسيون والساعون إلى (المجد)، والذين يريدون أن يصلحوا العالم ضربة لازب. وكم قضى

(المجد) على طالبيه، وكم شُغل السّاعون إلى إصلاح العالم، عن إصلاح أنفسهم.

أريد، يا ويحي، أن أكون كما وصفت في بعض ما كتبت، وأنا قريب العهد بالمدينة. منذ أسابيع فقط، كنت أتمرغ في ذلك التراب، وأطرق تلك الأبواب، وآه لو يصدق الفأل ويُجاب الدعاء:

«... إنك اخترتَ جَدَّك، وجَدُّك اختارك، لأنكما أرجح في موازين أهل الدنيا. وأبوك أرجح منك ومن جدّك في ميزان العدل. لقد أحب بلا ملل، وأعطى بلا أمل، وحسا كما يحسو الطائر، وأقام على سفر، وفارق على عجل. حلم أحلام الضعفاء، وتزوّد من زاد الفقراء، وراودته نفسه على المجد فزجرها، ولما نادته الحياة.. لما نادته الحياة...».

# ١٩

بوسطن مدينة جميلة، لا يصعب عليك أن تألفها، خاصة إذا عشت في إنجلترا. فهي إنجليزية المعمار والسّمت. لكنها أكثر سعة وأكثر أبّهة. وقد علمت أنها أقدم مدينة في الولايات المتحدة، وتاريخ نشأتها مرتبط بتاريخ صراع الأمريكان ضد الاستعمار الإنجليزي، وقيام دولتهم.

هنا حدثت أحداث جسام، مثل ما يسمى بـ (حفْلة الشاي) عام ١٧٧٣، حين عبَّر أهل بوسطن عن سخطهم ضد السلطة البريطانية، فصعدوا السفن الإنجليزية المحمّلة بالشاي، ورموا حمولتها في البحر. وقد رد الإنجليز على هذا العمل الثوري بإجراءات عنيفة، كان لها صدى بعيد، وزادت من لهيب ثورة الأمريكان.

وهي معقل عائلة كنيدي، منها بدأ (جون كنيدي) صعوده الذي

أدّى به إلى رئاسة الجمهورية.

وفي ريفها عاش الشاعر الأمريكي الكبير، بل أمير شعراء أمريكا (روبرت فرُستْ). وله مجموعة من القصائد أسماها (شمال بوسطن)، منها تلك القصيدة الجميلة (الطريق الذي لم أسلكه)، حين وقف عند مفترق طرق، واحتار أي طريق يسلك، ثم اختار أن يمضي في الطريق الذي لم يطرقه أحد قبله، وقال:

«قلت أترك الطريق الآخر ليوم آخر، لكن لعلمي كيف يقود طريق إلى طريق فإنني أشك أنني سوف أعود إليه أبداً». وفي هذا المعنى قال العبقري أبو الطيب:

ولله سيري ما أقلّ تئِيّةً
عشيَّة شرقيْ الحدالي وغُرَّبُ
عشيّة أحْفى الناس بي من قلوْتُها
وأهدى الطريقين التي أتجنَّبُ

ذاك شعر جميل، ولكن هذا قمة لا تُطال، أم ترانا نتعصب لبضاعتنا أبداً؟

هذا، وقد تمثّلتُ من شعر (روبرت فرست) في الكلمة التي خاطبت فيها اجتماعاً عاماً في جامعة بوسطن، بأبيات من قصيدته التي ألقاها في احتفال تنصيب (جون كنيدي) رئيساً، يقول فيها:

شيء ما كنّا نضنّ به،
جعلنا ضعفاء،
ثم أدركنا أن ذلك الشيء هو أنفسنا،
كنا نضنّ بها على أرض الأحياء.

حينئذٍ وجدنا الخلاص في الاستسلام،
فأعطينا على علاّتنا،
أنفسنا من أنفسنا، بلا تحفّظ».

(الاستسلام) هنا لا تعني الإذعان والرضوخ، ولكنها تعني الاستجابة لدواعي البذل والعطاء. وكنتُ بطبيعة الحال، أفكر في السودان.

وقد كان السودان ماثلاً في بوسطن تلك الأيام، إذ وافق ذلك مؤتمر (جمعيّة الدراسات السودانية). وهي جمعية أنشأها منذ سنوات، نفر من محبّي السودان، المهتمين بتاريخه وشعوبه وثقافاته وحضارته، من الأوروبيين والأمريكان وغيرهم.

يا ليت أولياء أمورنا في الخرطوم يحضرون مثل هذه المؤتمرات. إذاً لاستفادوا شيئاً. إذاً لرأوا في عيون الآخرين، سوداناً غير السودان الذي يظنونه.

ومن أعجب ما سمعته في هذا المؤتمر في محاضرة لعالِم سوداني، أن النظام القائم، جاء بشركة علاقات عامّة أمريكية، ودفع لها كذا مائة ألف دولار أو كذا مليون دولار لتحسين صورته. يا أخي أنت وجدت رصيداً جاهزاً. رصيداً ضخماً من التقدير والإعجاب بالسودان، لم تأل جهداً في تبديده وتحطيمه ثم تجيء بشركة علاقات لتحسين صورتك!

في هذا المؤتمر علماء عكفوا على دراسة السودان من منطلق الحب لأهله. تدهشك كثرتهم وتنوع جنسياتهم. فهذا اقتصادي أمريكي من جامعة (هارفرد) يتحدث عن التكافل الاجتماعي في غرب

السودان. ويسمي ذلك (الاقتصاد الخُلقي). وهذا عالم إنجليزي من جامعة (أوكسفورد)، عكف على دراسة تاريخ مملكة (سنّار). وهذا عالم فرنسي من المعهد القومي للبحوث، ذلك المعهد العتيد في فرنسا، تعمّق في دراسة قضايا الجنوب.

وهذه العالمة اليابانية من جامعة طوكيو تتحدث العربية كأنها نشأت في أم درمان.

جابت السودان من أقصاه إلى أقصاه. لا تكاد تذكر لها بلدة أو قرية إلّا وقد حلّت بها، وعرفت ناسها.

ثم هذه السيدة الرائعة، الدكتورة منى تقي الدين أميوني، من الجامعة الأمريكية في بيروت، ظلت منذ سنوات، تطوف العالم، تحاضر عن السودان وتشيد به وبشعبه.

كلهم شغفوا حبّاً بالسودان، لأنهم وجدوا فيه وفي أهله ذلك الشيء النادر، الذي صنعه السودانيون على امتداد القرون، كما يُصنع السجاد الشيرازي الثمين. وهو نفسه الشيء الذي عميت عيون إخواننا هؤلاء عن رؤيته، فأمعنوا فيه إتلافاً وتمزيقاً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فِالله المستعان.

أنت يا سيدي كما قال الشيخ:
«الذي تبحث عنه قد تركته وراءك ببشطام».

# ٢٠

قال (بونا ملوال)، صديقنا، وأخونا في الوطن ـ لحد الآن ـ الذي كان وزيراً مدة سبع سنوات في عهد النميري، ويعيش الآن في أوكسفورد عضواً في كلية (سانت أنتوني) ـ قال إن تاريخ السودان بدأ عام ١٩٤٥، وأن السودان عبارة عن أرض سائبة (للاستثمار أو البيع)، وأنه يشبه (طفلاً غير شرعي)، وأن مؤسساته غير قابلة للاستمرار، وأنه لا بد من تفكيك القطر بأكمله وإعادة صياغته من جديد.

ذلك كان في حفل العشاء الذي أقيم مساء الجمعة الثاني والعشرين من نيسان/ أبريل، خلال مؤتمر جمعية الدراسات السودانية الذي انعقد في (بوسطن).

ولأن (بونا ملوال) كما وصفت، وأكثر من ذلك أنّا كنا نعدّه من

الجنوبيين الذين لم تُعْم الأحقاد القديمة عيونهم، فقد تعلّم في جامعة الخرطوم، وأتقن اللغة العربية، وخالط الشماليين وله عندهم صداقة وتقدير، وكان في يوم من الأيام وزيراً للإعلام الناطق الرسمي باسم الدولة. لكل ذلك، فقد استمعنا إليه بدهشة بالغة وحزن عظيم.

وصف الشماليين بأنهم خاضوا في تجارة الرقيق واتهمهم بالاستعلاء العرقي، وقال إنهم أسوأ من البيض في جنوب أفريقيا. وكنا قد سمعنا كلاماً مثل هذا من قبل، من شاب جنوبي زعم أن العرب الشماليين ما يزالون يغيرون على القرى الجنوبية، ويختطفون الأطفال ويرسلونهم إلى أسواق الرقيق في ليبيا والجزيرة العربية، حسب زعمه. وقد أيّد (بونا ملوال)، هذا الزعم، وأضاف إليه أن النظام القائم الآن في السودان، يسمح بتجارة الرقيق وأن النساء الجنوبيات سبايا عند من أسماهم بـ (المجاهدين).

هذه تهم غاشمة كما ترى، واضح فيها سوء القصد، لأن المتحدث كان في المقام الأول، يخاطب الرأي العام الأمريكي، وقد طالبهم صراحة أن يهبّوا لنجدة الجنوبيين، للتخلص من قهر الشمال وتسلطه.

كان يدرك بطبيعة الحال، أن كلامه قد يجد صدى لدى بعض (البيض) الذين أثقل ضمائرهم ما فعلوه بالسود، وقد يجد صدى عند بعض (السود)، الذين يعيشون اليوم في أمريكا، حالة من الغليان والثورة، يحاولون أن يكسروا الأغلال التي كبلتهم منذ قرون.

والحقّ، أن السودانيين الجنوبيين صاروا يستغلون كلمة (عرب)

استغلالاً ماهراً، يلعبون على أوتارها بإلحاح، مستثيرين المخاوف ضد العرب، والأحقاد التاريخية الكامنة في قرار الوجدان الأوروبي. وهكذا يجد عرب السودان وربما معهم الموريتانيون، أنهم يقفون وحدهم في أفريقيا، إزاء إرث تاريخي فادح، لا قبل لهم بحمله. ولا بدّ من القول أن الحكم الحالي في السودان، إذ يرمي بنفسه في ملتقى تيارات تاريخية مرعبة لا يدرك قرارها، إنما يضيف إلى فداحة العبء ويحمّل السودان البائس ما تنوء به العصبة أولو القوة.

إنما هي فرْيةٌ كبرى. لا أحد ينكر أن العرب دخلوا في تجارة الرقيق، في السودان وفي شرق أفريقيا. لكن المؤرخين المنصفين كلهم اتفقوا، أن دورهم كان ثانوياً بل أصغر بكثير من دور الأفريقيين أنفسهم، وأن الجرم الأكبر يقع على عاتق الأوروبيين.

إنها قضية كبيرة كان أحرى بالعرب كافة أن يتصّدوا لها، وإلّا تحولوا إلى كبش فداء من كباش التاريخ مستسلم للذبح. وحسبي أن أشير الآن إشارة عابرة إلى كتاب صدر مؤخراً عن دور البريطانيين في تجارة الرقيق، للدكتور (جيمس والفن ـ James Walvin) أستاذ التاريخ في جامعة (يورك) عنوانه (العاج الأسود). يقول فيه:

«بدخول الإسلام، صار الزنوج الأفريقيون يؤخذون أسرى في الحروب، رجالاً ونساء وأطفالاً. وكان النساء والأطفال مرغوبين أكثر (النساء للأغراض الجنسية، والأطفال للخدمة في البيوت). وكان التجار العرب يرسلونهم عبر الصحراء، أو بالسفن عبر البحر الأحمر وعن طريق شرق أفريقيا. إلّا أن هذه التجارة، كانت تجارة صغيرة، محصولها لا يزيد عن بضعة آلاف في العام».

بالقياس إلى هذا يقول دكتور (والفن) أن تقديرات أعداد الأفريقيين الذين رحّلهم الأوروبيون عبر الأطلسي إلى الأمريكيتين تتراوح ما بين خمسة عشر مليوناً إلى خمسين مليوناً[*] ويضيف:

«إنما الثابت على أي حال أن نحو اثني عشر مليوناً رحلوا عبر الأطلسي، وقد ماتت أعداد كبيرة منهم في الطريق، تقدّر بين عشرة بالمائة إلى عشرين بالمائة (...) ومن بين الدول الأوروبية العاملة في تجارة الرقيق، نقل الفرنسيون وحدهم نحو مليون ومائة وخمسين ألفاً من الأفريقيين عبر الأطلسي في القرن الثامن عشر، وبين عام ١٧٠٠ وعام ١٨١٠ نقل البريطانيون ثلاثة ملايين، ونقل الأمريكيون الشماليون أكثر من مائتي ألف (...) هذه أعداد هائلة بكل المقاييس، إذا علمنا أن مجموع سكان الجزر البريطانية عام ١٨٠٠، كان عشرة ملايين».

كانت تجارة واسعة منظمة، تسندها أجهزة إدارية ضخمة وعسكر ومصارف وسياسيون في المناصب العليا للدول. وقد أورد بروفسور (بازل ديفدسون)، وهو واحد من أحبار المؤرخين لأفريقيا، أورد في كتابه (تجارة الرقيق في أفريقيا) قول رجل إنجليزي يدعى (جون باروت)، عام ١٦٨٣، قال:

«تجارة الرقيق هي تجارة الملوك والأثرياء وكبار رجال الأعمال».

هذا، ويضيف دكتور (جيمس والفن) قوله:

«لا تكاد عقولنا اليوم تقبل ما حدث. تاجر الرقيق الإنجليزي المتدين الذي يخاف الله، لا يجد غضاضة في أن يقوم بهذا العمل الذي لا يرضاه الله. مئات الأوروبيين والأمريكان، يحمدون الله على نعمته أنه يسّر لهم تجارة رابحة في أفريقيا.

تفيض قلوبهم بالشكر وهم يبحرون بسفنهم في مهب رياح رخاء تحملهم إلى العالم الجديد. هم، والذين جاءوا قبلهم، والذين سوف يجيئون بعدهم، لا يرهق ضمائرهم أدنى إحساس بالذنب، إنهم يجترحون عملاً منكراً يخالف تعاليم الدين المسيحي الذي يدينون به».

(*) يقدّر (بروفسور ديفدسون) عدد الأفريقيين الذين نقلهم الأوروبيون إلى الأمريكيتين، بخمسة عشر مليوناً. ومن مصادر أخرى، أن عدد الذين نقلوا إلى أمريكا الجنوبية وحدها بلغ عشرين مليوناً.

■ ■ ■

من نافلة القول، أنك لا تستطيع أن تدافع عن الشر، سواء قلَّ أم كثُر. كانت تجارة الرقيق شرّاً بيّناً، بل وباء أصاب جسد الإنسانية ردحاً من الزمن.

نعم، لم يخرج العرب طاهري الذيل تماماً من رجس تجارة الرقيق في أفريقيا، ولكن شتان بين نصيبهم ونصيب غيرهم. لقد كان دورهم أقل حتى من دور الأفريقيين أنفسهم.

يقول دكتور (كفن شلنجتون) من جامعتي زامبيا ولندن، عن الدور الأفريقي، في كتابه (تاريخ أفريقيا):

**«كان الأوروبيون، في الغالب، لا يبرحون قلاعهم الحصينة المنتشرة على امتداد الساحل الغربي لأفريقيا. وكانت هذه القلاع بمثابة مراكز لتجميع الأسرى ثم نقلهم عبر المحيط الأطلسي. وكانوا يحصلون على الإذن بإقامة تلك الحصون**

من الحكّام المحليين، لقاء أتاوات معينة يدفعونها لهم. وعلى وجه العموم، فقد كان الحكّام الأفريقيون ورؤساء العشائر، هم الذين يحصلون على الرقيق، وهم الذين يعدون السماسرة والأدلاء، الذين يوصلون الأسرى الأفريقيين إلى التجار الأوروبيين على الساحل...».

القسط الأكبر من هذا النشاط التجاري البشع، كان منصبّاً على الساحل الغربي لأفريقيا. ساحل السنغال وغينيا وساحل الذهب وساحل العاج وأنجولا. وقد استعر النشاط في القرن السابع عشر في ساحل نيجيريا الحالية، فسمى (ساحل الرقيق).

أما عن الدور الأوروبي، فيقول (دكتور شلنجتون):
«أول فوج من الأسرى الأفريقيين، يُنقل عبر المحيط الأطلسي، كان عام ١٥٣٢. ثم اتسعت تلك التجارة في السلع البشرية.. ومنذ عام ١٦٣٠، دخل الهولنديون الميدان، ثم لحق بهم الفرنسيون، ثم الإنجليز. وقد زاد الطلب على الرقيق زيادة قصوى، نتيجة التوسع في زراعة قصب السكر في البرازيل وجزر البحر الكاريبي، حتى وصل حجم التجارة من الساحل الغربي لأفريقيا حدّاً مذهلاً. وعلى مدى القرنين التاليين، حدث أعظم نزوح قسري لشعوب مغلوبة على أمرها، عرفته البشرية في تاريخها كله».

**هكذا نرى، أن تجارة الرقيق من الساحل الغربي لأفريقيا، كانت (مؤسسة) ذات كفاءة عالية ـ من وجهة نظر المنتفعين بها ـ منظمة تنظيماً لا يطيقه إلّا الأوروبيون بمهارتهم المعروفة في التنظيم. وقد انتحلوا لها مبررات عرقية زائدة، وذرائع خلقية باطلة. وهي مؤسسة**

أدت بشكل منطقي إلى مؤسسة أعمّ وأشمل، ألا وهي الاستعمار.

يقول (بازل ديفدسون) في كتابه «تجارة الرقيق في أفريقيا»:

«... لم يكن (لفنجستون) غافلاً عن حقيقة ما يحدث. كان يعلم أنه يشهد نشاطاً جديداً متزايداً في تجارة الرقيق. وقد وجد إلى الجنوب، في حوض نهر الـ (زامبيزي)، أنه حين شق دروباً جديدة، فقد سهل دخول تجار الرقيق الذين يعملون لصالح البرتغاليين... أثناء ذلك، لم يجد الرأي العام في أوروبا غضاضة في تلك التجارة، وتقبلها كما لو أنها أمر طبيعي لم يزل يحدث في تلك المنطقة طوال تاريخها».

ويدلل بروفسور (ديفدسون) على انتشار النظرة المتعالية تجاه أفريقيا حتى بين العلماء في ذلك الزمان، برأي مؤرخ معروف يدعى (كوبلاند)، كتب يقول عام ١٩٢٨:

«لم يكن لأفريقيا تاريخ قبل (لفنجستون)... ظل الإفريقيون لقرون طويلة، منغمسين في البربرية والهمجية.. إنه كما يبدو لنا، ناموس حتمي من نواميس الطبيعة.. ظلوا في جهالة وخمول.. كان قلب أفريقيا متوقفاً عن الخفقان...».

ها هنا، في كلمات هذا المؤرخ تجد خلاصة نظرية التفوق العرقي ـ أن الإنسان الأسود بطبيعته لهو في أسفل درجات سلّم الرقي الإنساني، وأنه غير قابل للتعليم، ولن تجدي معه محاولات التحضّر. لذلك فإن استرقاقه والتسلّط عليه، أمر مقبول (خُلُقياً).

لا يخفى أنها نظرية تخالف كل ما جاءت به الشرائع السماوية، وقد نسفها الإسلام نسفاً، حين نص في محكم التنزيل:

﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

هذا، ومن الإنصاف القول، أن معاناة (لفنجستون) في أفريقيا، ونهايته المأسوية، قد ألهبت خيال الرأي العام في أوروبا، وفي إنجلترا خاصة، وكان ذلك سبباً في ظهور حركة قوية تطالب بإيقاف تجارة الرقيق. إنما لا بد من القول أيضاً، أنه بقدر ما كانت تجارة الرقيق (صناعة) أوروبية في الغالب، فإن الدعوة إلى وضع حد لها، صارت ذريعة لتدخل أوروبي من نوع آخر ـ الاستعمار.

ولم يكن للعرب نصيب يُذكر في أيٍّ من هذا. كان دورهم ضعيفاً قام به أفراد مغامرون.

إذا أحسنّا الظن نقول، إنهم لم يرموا بثقلهم في تجارة الرقيق، لأنهم كانوا أكثر استجابة من الأوروبيين، لدواعي دينهم الحنيف الذي لا يفرق بين أحمر وأسود، ولا بين عربي وغير عربي.

وعلى أسوأ الفروض نقول، إنه لم تكن لهم القدرة التنظيمية الهائلة، كما استطاع الأوروبيون، لتسيير تلك المؤسسة الضخمة (العابرة للقارات ـ ترانسناشُنال) ـ رغم بشاعتها.

إنما الثابت على أي حال، أن العار التاريخي الذي لحق بهم، وهو من الضآلة بحيث لا يُقاس بما لحق بالأوروبيين.

■ ■ ■

حين يُذكر دور العرب في تجارة الرقيق في أفريقيا، يبرز اسمان عربيان أكثر من غيرهما، تجدهما يغطسان ويطفوان في ثنايا أوصاف الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر، وفي كتب المؤرخين الأوروبيين، يترددان مثل لحن موسيقي كئيب، رمزاً للبشاعة والقسوة والجشع والخداع.

استقرت هذه الصورة في أذهان الأوروبيين، حتى بدا كما لو أن العرب وحدهم، دون سواهم، هم الذين اجترحوا ذلك الإثم الذي لا يعدله أي إثم في تاريخ البشرية. وقد كان الرأي العام في أوروبا مستعدّاً على أي حال، لتقبل هذا التزييف، بسبب الحزازات القديمة التي آلت إليه، تلك الحزازات التي خلّفها الصراع العربي - الأوروبي في إسبانيا، والصراع العثماني - الأوروبي في البلقان وأبعد، والصراع الإسلامي - الصليبي، خاصة في بلاد الشام.

لا تكاد تجد من شذّ عن هذا المنحى من المؤرخين الأوروبيين - وأغلب المصادر عن تجارة الرقيق أوروبية - اللهم إلّا قلّة من المؤرخين المنصفين في الآونة الأخيرة، الذين حاولوا أن يضعوا دور العرب في سياقه الحقيقي، بالقياس إلى أدوار غيرهم من الأمم. وكما قلت، فإن هؤلاء المؤرخين الأمناء، وضعوا الجرم حيث ينبغي أن يوضع - على عاتق الأوروبيين في المقام الأول.

الرجلان العربيان، أحدهما عُماني من زنجبار هو حامد بن محمد المعروف بـ (تبو تبْ) والثاني سنّاري سوداني من ديار (الجعليين) هو الزبير باشا ولد رحمه. وفي حقيقة الأمر، فإن التجارة لم تكن هدفاً لأي من الرجلين. اشتريا وباعا، من الرقيق وسن الفيل. وتلطخت أياديهما أحياناً في الدماء، ولا يمكن تبرئتهما كلية، على أنهما

ملكان طاهران في محيط مليء بالشر.

إنما كل واحد من هذين الرجلين المغامرين، كان يسعى إلى إقامة دولة. وكل واحد منهما كوّن جيشاً قوياً من العرب والسود. كانا متشابهين إلى حد بعيد. كل منهما عُرف بالشجاعة والحنكة والمهارة العسكرية والقدرة على الزعامة والرئاسة.

وقد كاد كل منهما يحقق هدفه. بسط الزبير نفوذه على رقعة واسعة تمتد من بحر الغزال إلى أقصى غرب السودان إلى تشاد. وحاز (تبو تِبْ) على ثلثي الكنغو. لكنهما اصطدما بالطموحات الاستعمارية الأوروبية، التي لم يكن لأي منهما القدرة لمواجهتها. وانتهى الأمر بالزبير، أنه نُفي إلى مصر، وعاد (تبو تب) أدراجه إلى زنجبار خالي الوفاض، بعد أن جرّب اللعب مع البلجيك، وخسر بطبيعة الحال.

ذلك الرحالة الإنجليزي الأمريكي الغريب (ستانلي)، هو الذي لطّخ سمعة (تبو تب) أكثر من أي شخص آخر. كان قد لقيه أول مرة عام ١٨٧٦ في بلدة (نيانقوى) على نهر (لوالابا)، حين كان (ستانلي) يحاول أن ينجز مغامرته الكبرى، أن يشق أفريقيا من الشرق إلى الغرب. وكان (تبو تب) خبيراً بتلك الدروب، فاستعان به (ستانلي) جزءاً من الطريق. ولكن (تبو تب) لم يحتمل عنجهية (ستانلي) فتركه غاضباً.

**كتب (ستانلي) في مذكراته بتاريخ ٧ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٨٧٦ ـ ولعله كتب بعد هذا التاريخ بزمن فقد عُرف عنه الاختلاق والتزوير:**

**«قال لي حامد بن محمد: «الحصول على العبيد لا يكلف**

جهداً. ما عليك إلّا أن تسوقهم أمامك... هذا بالطبع هو عمل معاونيه (مويني دوقمبي) و(متاقا مويو).. هؤلاء الهجناء لا يحملون معهم أقمشة ولا خرزاً ولا أي سلعة للمقايضة.. إذا أرادوا سن الفيل فإنهم يحصلون عليها بالنهب.. يغيرون على أهالي (نيانقوى) البؤساء، ذات اليمين وذات اليسار. يقبضون على اثني عشر أو خمسة عشر أسيراً ويبيعونهم مقابل ستة عشر كيلو من سن الفيل.. (مِويني دوقْمبي) يملك حريماً مكوناً من مائة أو مائة وعشرين امرأة. و(متاقا مويو) له حريم من اثنتين وستين امرأة».

لا يخفى التضارب والتناقض في هذا الكلام، فبعد أن زعم (ستانلي) أن (تبو تب) كان يحصل على سن الفيل نهباً، عاد فزعم أنه يحصل على (العبيد) بالقوة، ويقايضهم بسن الفيل. وهو يرمي من وراء ذلك بالطبع أن يقول، أن سن الفيل أغلى عند هذا العربي من الأرواح الآدمية.

ثم تهمة الشبق الجنسي والحريم، وهي تهمة تلاحق العرب إلى يومنا هذا.

ورغم ذلك، فإن المؤرخ الإنجليزي (كفنْ شلنجتون) الذي حاول أن يكون منصفاً، استدل بقول (ستانلي)، على ما وصفه بـ (رخص الحياة البشرية عند تبو تب وأتباعه). لكنه لم يستطع إلّا أن يعقب على مضض بقوله:

«لا بد من الإشارة إلى أن (ستانلي) نفسه لم يكن يتورع عن إطلاق النار على الأفريقيين وقتلهم لأتفه الأسباب».

لا عجب، فإن المجازر التي اجترحها هذا الرحالة، الذي اشتهر بالمبالغة والكذب، لا يمكن إنكارها. وقد بلغ من كذبه أن بعض العلماء الإنجليز في ذلك العصر، شككوا في أن يكون (ستانلي) قد التقى بـ (لفنجستون) بالفعل، كما زعم.

■ ■ ■

كان حامد بن محمد الملقَّب (تبو تب) عربياً أفريقياً، لحماً ودماً. كان أبوه عربياً عُمانياً زنجبارياً وأمه، أفريقية سوداء، لذلك تجد بعض الرحالة الأوروبيين، يعيّرونه أحياناً بأنه (هجين).

الزّنج أهله وذوو رحمة، كما هُم يعرب زنجبار وشرق أفريقيا، كما هم يعرب السودان. واتهامهم بالتعالي، اتهام أجوف، إذ كيف يتعالى الإنسان على بعض نفسه. إنما الأوروبيون أحالوا إثمهم على العرب إبراءً لذمتهم، وتلك شنشنة فيهم، وكما تقول العرب «رمتني بدائها وانسلّت».

في غمار كل ذلك، لا يملك الإنسان إلّا أن يقرأ ببعض الدهشة، الوصف الناطق الحي، الذي وصف به (تبو تب)، الكاتب الإنجليزي (آلان مورهد) في كتابه «النيل الأبيض». إنه وصف يتضمن كثيراً من عناصر العلاقة المحيرة التي قامت بين العرب والأوروبيين، علاقة تختلط فيها الجاذبية الشديدة، بالنفور الشديد. يقول:

«محمد بن سعيد[1] الذي سار عليه لقب (تبو تب) بسبب رجفة في عينيه إثر مرض أصابهما رجل من طراز يصعب

(١) يقصد حامد بن محمد.

على الأوروبيين فهمه. كان سفاحاً بالغ القسوة، وفي الوقت نفسه عميق الثقافة واسع الاطلاع، اجتمعت فيه كل صفات التهذيب والتحضر التي يطلبها الأوروبيون في الرجل الـ (جنتلمان).

كان وسيماً فائق الوسامة، داكن سمرة البشرة، فارع الطول، له لحية بيضاء. مهيب الطلعة ذكي الحديث (قرصاناً) غاية في الجاذبية واللطف.

هذا الوغد النبيل، وسوف نرى طرازه يتكرر في السودان[٢] كان واسع الثراء، وكان قصره الباذخ في زنجبار، وهو قائم إلى اليوم، محط القوافل التي كانت تضرب في عمق أفريقيا، متغلغلة إلى حدود الكنغو وأبعد... أنقذ (لفنجستون) وهو يشرف على الهلاك في قلب القارة، ثم أعان (ستانلي) في رحلته...».

ذلك اللقاء الأول، كان عام ١٨٧٦، حين كان (ستانلي) يسارع أن يكون أول رحالة يعبر القارة من الشرق إلى الغرب، لا يبالي كيف يتم ذلك. ثم التقى الخصمان في زنجبار بعد عشر سنوات، وكان (ستانلي) قد أدرك أنه لن يستطيع أن يحقق حلم ليوبولد ملك البلجيك، في الحصول على الكنغو، دون الاستعانة بـ (تبو تب).

يصف الدكتور (فرانك ماك لن) من جامعة أوكسفورد، هذا اللقاء، في كتابه الجميل (ستانلي ـ صبي الساحر)[٣]، فيقول:

(٢) يشير إلى الزبير رحمة.
(٣) يقصد بـ (الساحر) الملك ليوبولد، ملك بلجيكا.

«... وجد (ستانلي) أن السنوات العشر قد تركت أثراً واضحاً على (تبو تب). ابيضّ شعر رأسه ولحيته، ولكنه بقامته الفارعة (ستة أقدام وبوصتان)، لم يفقد شيئاً من مهابته (...) كان يمثل القوة الحقيقية في أفريقيا بين بحيرة (تانقانيقا) أعالي الكنغو (...).

حين عاد (تبو تب) إلى زنجبار، وجد السلطان برقش ضعيفاً مستخذياً، فاضطر أن يمسك بمقاليد الزعامة العربية ودخل في مفاوضات مع (هو لموود)[٤]. وقد أنذره أن العرب في داخل القارة سوف يقاومون حتى الموت، أي محاولة أوروبية لنزع ممتلكاتهم منهم بالقوة. وفي الوقت نفسه رحب بأي مساعٍ بريطانية لتسوية الخلافات بينه وبين البلجيك (...).

كان وضع (تبو تب) صعباً جداً. كان يحب الأوروبيين على وجه العموم إلّا (ستانلي). لم يكن يطيق (ستانلي). كان يعتبره رجلاً كاذباً لا يملك ذرّة من الأمانة أو الشرف. رجلاً لا يحافظ على كلمته ولا يفي بوعده. كان يقول إن (ستانلي) أسوأ من أي تاجر رقيق حقير، وأنه لا يكنّ أي احترام للأهالي الأفريقيين، الذين لم يكن يبالي أن يضحي بآلاف منهم، في سبيل الوصول إلى أهدافه.

كان أحياناً ينصب منهم حائطاً بشرياً يحتمي وراءه من نيران بنادق أعدائه، وأحياناً يقذف بهم إلى الهلاك في عمق

(٤) فردريك هولموود، كان مساعد القنصل البريطاني في زنجبار، وكان القنصل (كيرك) من ألدّ أعداء (ستانلي).

الغابات الاستوائية، من حيث لا يجدون طريقاً إلى النجاة...».

هذه الصورة ليس فيها أي مبالغة، فقد أكدها عدد من المؤرخين. ولم تزل الوصمة تلاحق (ستانلي) من جراء المذبحة البشعة التي ارتكبها في جزيرة (بُمبيرة) في نيسان/ أبريل عام ١٨٧٥. في ذلك الوقت، غضب كثيرون مستنكرين تلك البشاعة، وكتب الرحالة (بيكر) إلى زميله (قرانْت) يقول:

«إنه أمر لم يحدث إطلاقاً من قبل، أن يقوم مكتشفون بسطاء أمثالنا بترويع القرى وإطلاق نيران البنادق على الأهالي. لا (سبيك) ولا أنت ولا (لفنجستون) اجترح شيئاً من هذا. كلنا تذرعنا بالصبر في مواجهة المصاعب».

هؤلاء الرحّالة، وكثير من الجغرافيين، وعدد غير قليل من أهل الرأي الذين لم تنطل عليهم حيل (ستانلي)، كل هؤلاء كانوا يشاركون (تبو تب) سوء ظنه بالرحالة المغامر.

يقول (توماس باكنهام) في كتابه «التكالب على أفريقيا»:

**«... كانوا يذهبون أبعد من مجرد الشك في دوافع (ستانلي)... كانوا على يقين أنه لم يلتق بـ (لفنجستون) إطلاقاً وأن الرسائل التي نشرها في كتابه «كيف عثرتُ على لفنجستون»، رسائل مزيفة، وأن رحلته كلها إلى أفريقيا، لم تكن أكثر من خدعة دعائية، وأن قصته من أولها إلى آخرها، كذب في كذب».**

■ ■ ■

إنها احتمالات تُذهل العقل. لو أن النفوذ العثماني ـ المصري استقر في وسط أفريقيا! لو أن اللاعبيْن العربييْن الماهرين نجحا في تحقيق طموحاتهما، الزبير إلى الجنوب الغربي، و(تبو تب) في الشرق الأوسط، وقد كادت مناطق نفوذهما تلتقي! لو أن الثورة المهدية استتب لها الأمر في الشمال، واستطاعت أن تعزز وجودها في الإقليم الاستوائي من أفريقيا!

إنما هي أحلام كانت كلها محكوماً عليها بالفشل. كان الوقت وقت استعمار، وكان الاستعمار الأوروبي في قمة جذوته، وكان الحكم الفصل هو السلاح، والسلاح أوروبي. «بُنْدُكي سُلْتاني يا بارا بارا» ـ كما يقول المثل السواحيلي ـ «البندقية هي السلطان في هذه البلاد».

في الآستانة، كان (الباب العالي) قد أخذ يتضعضع أمام الضغط الأوروبي وسوف ينهار وشيكاً. وفي القاهرة كان الخديوي إسماعيل ـ ثم توفيق ـ ظلاً للباب العالي، أي أنه كان ظلاً باهتاً لظل باهت. كان الحاكم الفعلي هو (المقيم) البريطاني. وفي زنجبار كان ظل السلطان برقش لا يكاد يرى. كان الحاكم الفعلي هو (كيرْك)، القنصل البريطاني، الذي سوف يخذله فيما بعد. وفي أم دُرْمان، عاصمة الدولة المهدية كان الخليفة عبد الله، الذي آل إليه الأمر بعد وفاة الإمام المهدي، يواجه صعوبات كبيرة من الداخل والخارج، سوف تقضي على دولته بعد نحو عشر سنوات من هذا التاريخ. كانت محاولته ضم مناطق أفريقيا الاستوائية إلى ملكه، بمثابة صرخة ضعيفة في واد سحيق.

بقي المغامران العربيان، الزبير ولد رحمه في السودان، وحامد بن محمد في زنجبار يعتمدان على ذكائهما وجرأتهما ومقوماتهما

الذاتية التي لم تكن تكفي. وكانت نهاية كل منهما، مثل نهايات أبطال مسرحيات (برخت). كل منهما خسر في اللعب، لكنه نجا بنفسه، ومات في فراشه، حتف أنفه.

وقد اتضح من سلوك القوى الأوروبية التي دخلت اللعب بجد منذ عام ١٨٨٠ أنهما كانا أشبه بالمقامرين الأوروبيين. إنْ كانا (وغدين)، كما وصفهما بعض المؤرخين الأوروبيين، فقد كانا وغدين بين مجموعة أوغاد.

من هؤلاء (بسمارك)، أخطر لاعب على مسرح السياسة الأوروبية في القرن التاسع عشر. تدخّل فجأة، تدخلاً حاسماً، قضى قضاء مبرماً على حلم (تبو تب) لإقامة دولة عربية في قلب أفريقيا.

لم يكن (بسمارك) معنياً بأفريقيا ولكنه وقع تحت تأثير مغامر ألماني يدعى (كارل بيترز)، يوصف بأنه أكثر تهوراً وقسوة حتى من (ستانلي).

في نيسان/ أبريل عام ١٨٨٥، رست خمس سفن حربية ألمانية في ميناء زنجبار، ونصبت مدافعها استعداداً لإطلاق النار، تحت (ظل) المدافع هذا ـ وهو ظل ذو ثلاث شُعب لم تزل تفيء إليه القوى العظمى ـ طلب القائد الألماني من السلطان برقش سلطان زنجبار، أن يوقّع في خلال أربع وعشرين ساعة على معاهدة أعدّت من قبل، بالتشاور مع (كارل بيترز)، بلا شك.

لم يكن للسلطان برقش المسكين من مفر ولا ملاذ. كان يركن إلى القنصل البريطاني (كيرك) الذي أوهمه ـ ولعله كان صادقاً ـ أن

بريطانيا سوف تحميه وتضمن له سلامة ملكه. لكن الأوامر وصلت من لندن إلى (كيرك) بألا يتدخل بأي وجه يعرقل مساعي ألمانيا.

تركوا له الجزر الثلاث ـ زنجبار وبمبا ومافيا ـ وشريطاً صغيراً من الساحل. أخذت ألمانيا تنقانيقا، وأخذت بريطانيا كينيا وتركوا منطقة الـ (باقاندا) التي عُرفت فيما بعد بـ (يوغندا) بلا سيد. فيما بعد، ضمتها بريطانيا إلى سيادتها، كما ضمت تنقانيقا وزنجبار.

لم يحصل (ليوبولد) على قطعة من هذه الفريسة. كان قد حصل أخيراً على الكونغو بمعونة ستانلي، لكنه لم يكتف بذلك، بل أراد أن يضم إليه المنطقة الاستوائية التي أصبحت فيما بعد جزءاً من السودان.

تلك الإهانة قصمت ظهر برقش المسكين، فمات بعدها بقليل، وهو لم يتجاوز الحادية والخمسين من العمر.

في أثناء ذلك كان (ستانلي) يصعد من نجاح إلى نجاح. إن كان (الزبير) و(تبو تب) وغدين فهذا هو الشيطان بعينه. كان يحمل في جيبه عدة ولاءات، يبيع فيها ويشتري كيف شاء. ولاء لبريطانيا بحكم مولده، وقد حاول جاهداً أن يقنعها باستعمار الكونغو. وولاء لأمريكا بحكم نشأته ولعل أمريكا حين دخلت فيما بعد معترك الأحداث في أفريقيا كانت تلاحق بين أصداء الأصوات التي أثارتها، صدى صوت ستانلي.

ثم تلك العلاقة العجيبة بين (ستانلي) و(ليوبولد) التي وصفها المؤرخ الإنجليزي (دكتور فرانك ماك لن) بأنها مثل علاقة الساحر بصبية إنما

(ستانلي) لم يكن صبياً دائماً. كان يبدو أحياناً كما لو أنه هو (الساحر) والصبي هو (ليوبولد).

في نحو هذا الوقت، نشأت علاقة أخرى تقوم على المصلحة بين (ستانلي)، ورجل أعمال إسكتلندي يدعى (ماكنون) أراد أن ينقذ أمين باشا ـ وكانت أخباره قد انقطعت في وسط أفريقيا ـ ويجمع بين عمل البر والكسب المادي.

وفوق كل شيء كان ولاء (ستانلي) لنفسه. كوّن ثروة وسمعة واسعة على جثة (لفنجستون) وجثة (أمين باشا) من بعده. ألّف كتباً عدة مشكوكاً في مصداقيتها لكنها نالت رواجاً عظيماً. احتفت به الملكة فكتوريا ورئيس الولايات المتحدة. اشترى مزرعة في إنجلترا وأصبح نائباً في البرلمان، ونال لقب (سير) وصار (سير هنري مورتن ستانلي).

أما (أمين باشا) فقد كان مغامراً ـ وإن شئت قُل (وغداً) ـ من نوع آخر.

■ ■ ■

غصّت أفريقيا في هذا الوقت، بأنماط عجيبة من الأوروبيين، رجال قذفت بهم في تلك الأصقاع نوازع متصاربة. الفضول، وحب التعرف على عوالم غريبة، والطموح الذاتي وطلب الشهرة، والطمع، وأحياناً المثل العليا في حالات نادرة مثل حالة غوردون.

كان من المشهورين منهم في السودان، صموئيل بيكر الإنجليزي، وروموليو جسي الإيطالي، ورودلف سلاطين النمساوي، وإدوارد

شنتزَرْ الألماني، وبالطبع الجنرال غوردون الذي لاقى حتفه في الخرطوم.

كانوا اسمّياً موظفين لدى خديوي مصر، الذي بدوره يخضع اسمياً للباب العالي في اسطنبول. كل منهم يضع الطربوش على رأسه، وأغلبهم يحمل لقب (باشا). لكن كل واحد منهم كان في قرارة نفسه متعاطفاً مع طموحات دولته في الصراع الدائر، للسيطرة على القارة (البكر)، كما كانوا يسمونها.

ولن تجد صراحة أكثر، في التعبير عن هذا الوضع، من الرسالة التي وجهها (لورد قرانْفل) وزير الخارجية البريطانية، إلى الجنرال غوردون، بتاريخ ١٨ كانون الثاني/ يناير عام ١٨٨٤، يعينه فيها ـ في الواقع ـ حاكماً عاماً على السودان للمرة الثانية. تقول الرسالة:

«سيدي،

إن حكومة صاحبة الجلالة ترغب أن ترسلك فوراً إلى مصر، لتطلعها على حقيقة الوضع العسكري في السودان، والخطوات التي تنصح الحكومة المصرية باتخاذها لضمان سلامة الحاميات المصرية التي ما تزال محافظة على موقعها في ذلك القطر، وسلامة الجاليات الأوروبية في الخرطوم. وترغب الحكومة منك أيضاً أن تنصحها عن أفضل الوسائل للجلاء عن المناطق الداخلية في القطر، وضمان سلامة الإدارة المصرية للموانىء على ساحل البحر. وبهذا الصدد، عليك أن تولي عناية خاصة للخطوات التي يمكن اتخاذها للتغلب على النشاط الذي سوف يزداد في تجارة الرقيق. نتيجة لحركة التمرد الحالية، وانسحاب السلطة المصرية من داخل القطر سوف تكون

خاضعاً لنفوذ مندوب صاحبة الجلالة وقنصلها العام في القاهرة، وعليك أن توجّه بواسطته، تقاريرك إلى حكومة صاحبة الجلالة. وعليك أن تعتبر نفسك مخوّلاً ومأموراً أن تقوم بأداء أية واجبات أخرى قد تطلب الحكومة المصرية منك أداءها، أو قد يطلبها منك سير (أيفلن بيرنْج).

سوف يرافقك (الكولونيل ستيوارت) الذي سوف يعاونك في تنفيذ المهمة التي أوكلت إليك. وحالما تصل مصر، عليك الاتصال فوراً بسير أيفلن بيرنْج، الذي سوف يقابلك، وسوف يشير عليك إنْ كان من المناسب أن تتوجه مباشرة إلى سواكم (يقصد سواكن) وهل تذهب بنفسك، أم يسبقك (الكولونيل ستيوارت) إلى الخرطوم، عن طريق النيل».

المخلص

قرانفل

*

هذا، وقد اتضح فيما بعد أن غوردون لم يكن أداة طيّعة في يد الحكومة البريطانية، وكان يكره (سير أيفلن بيرنج) الذي صار بعد ذلك (لورد كرومر) والحاكم الفعلي لمصر، ولا يطيق التعامل معه.

كذلك بدا، كما لو أن الطبيب الألماني (إدوارد شنتْزر Edward Schnitzer) كان طرازاً من الرجال مختلفاً عن شاكلة (ستانلي) وأن ولاءه كان خالصاً لصديقه الخديوي إسماعيل خديوي مصر.

وبالفعل، كان مختلفاً عن (ستانلي). بقدر ما كان (ستانلي) فجاً قاسياً متهوراً، كان هذا دمثاً مهذّباً، شديد التروي إلى حد التردد. وبقدر ما كان (ستانلي) جاهلاً، كان هذا عالماً متعدد الاهتمامات.

بالإضافة إلى الطب، كان يملك موهبة خارقه على تعلّم اللغات، فأتقن الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والتركية والعربية والفارسيّة واليونانية واللاتينية والروسية وعدداً من اللغات السلاڤية الصغرى. وكان أيضاً مهتمّاً بالعلوم الطبيعية، خاصة بالنباتات والطيور والحشرات، وكانت دراساته عنها تجد احتراماً عظيماً من العلماء المتخصصين. وخلال عمله، حقق عدة اكتشافات علمية، وأرسل عشرات العينات إلى عدد من متاحف الطبيعة في شتى العواصم الأوروبية فاشتهر بذلك.

عاش (إدوارد شنتزر) زمناً في تركيا، وراقه الأسلوب الشرقي في العيش، فانخرط في المأكل والملبس والمسكن. ثم اعتنق الإسلام، وسمى نفسه (أمين). وحين منحه الخديوي إسماعيل لقب (باشا)، أصبح يعرف بـ (أمين باشا)، وهو الاسم الذي غلب عليه واستحوذ على أسماع الناس وهْلة، بين ضوضاء الأسماء التي عجّت بها أفريقيا في هذه الحقبة من التاريخ.

يومئذٍ صارت أفريقيا مرتعاً للأحلام الأوروبية، أحلام الدول، وأحلام الأفراد.

هل كان (أمين باشا) صادقاً في إسلامه؟ الله أعلم. المؤرخون يذكرون من ناحية، أنه أثناء إقامته في تركيا كان يواظب على صلاة الجمعة في المسجد.

**ويذكرون من ناحية أخرى، أنه كتب إلى أخته في ألمانيا، يقول لها: «لا تقلقي. إنني فقط تسميت باسم (أمين)، ولكنني لم أصبح تركياً».**

واستدل المتشكّكون، أنه في نهاية حياته، خلع ولاءاته كلها، ما عدا ولاءه لوطنه الأصلي ـ ألمانيا.

■ ■ ■

كان (سير ايفْلِنْ بيرنج) الذي أصبح في ما بعد (لورد كرومر) ـ كان يقول «نحن لا نحكم مصر، ولكننا نحكم حُكّام مصر». لذلك في عام ١٨٧٩، عزل الإنجليز ومن ورائهم القوى الأوروبية ذات المصلحة، الخديوي إسماعيل، ونصّبوا مكانه ابنه توفيق.

لقد وجدوا في إسماعيل، حاكماً أكثر ذكاء وقوة وجرأة وطموحاً مما يطلبون. كان حاكماً مستنيراً. درس في كلية (سانت سير St. Cyr) العسكرية في فرنسا، وبهرته الحياة الأوروبية كما رآها في فرنسا، وكان يتحدث اللغة الفرنسية بطلاقة فائقة. كان بمثابة الوجه الآخر، لرجال أوروبيين، أمثال (بيرتُن) و(بيكر) و(أمين باشا)، الذين انجذبوا إلى الشرق، وربما لأجل ذلك، وقع الذين عملوا معه منهم، تحت تأثير جاذبيته.

حين خلف إسماعيل عمّه محمد سعيد عام ١٨٦٣، كان في الثالثة والثلاثين من العمر، فأقدم على مجموعة من الإصلاحات الواسعة. وقد أُثر عنه قوله «سوف أجعل مصر قطعة من أوروبا».

أعاد تعمير مدينة القاهرة. وكما أن مدينة باريس، تدين في هيأتها الحالية لنابليون الثالث، فإن ما بقي من مدينة القاهرة الحالية، هو ثمرة جهود الخديوي إسماعيل.

كذلك توسّع في شق الطرق، ومشاريع الري، وفوق كل ذلك تمَّ في عهده افتتاح قناة السويس.

حين عُزل عام ١٨٧٩، كان الخديوي إسماعيل قد تسبّب، نتيجة سياسته المفتوحة في الإنفاق في تراكم دين على مصر يقدر بمائة مليون جنيه إسترليني.

لكن الدَّين، لم يكن هو القضية. كان الأمر الذي أقلق الإنجليز وبقية الدول الأوروبية، أن إسماعيل بدا كما لو أنه ينوي أن يحتذي حذو جده محمد علي، أن يبني، دولة قوية مستقلة في مصر.

توسّع في بناء الجيش، وحاول أن ينشىء صناعة حربية في مصر. بمعنى آخر أراد «أن يكسر احتكار السلاح الأوروبي».

وكان يطمح أن يقيم أمبراطورية تمتد من منابع النيل في قلب أفريقيا، وتشمل أقاليم البحر الأحمر إلى المتوسط.

بالإضافة إلى كل ذلك، أصبح واضحاً أن إسماعيل بدأ يضيق بتسلط الدول الأوروبية، وأنه أخذ يتعاطف مع طموحات الشعب المصري، التي عبّر عنها بقوة في الثورة العرابية.

**أي واحد من هذه النوازع، كان يكفي للإطاحة بحاكم في وضع الخديوي إسماعيل في ذلك الزمان، وبعد قرن من هذا التاريخ، وقف جمال عبد الناصر الموقف نفسه إزاء القوى الأوروبية. وكانت الذريعة هي تأميم قناة السويس.**

استقال غوردون، وكان الخديوي إسماعيل قد عيّنه حاكماً عاماً على السودان عام ١٨٧٧. سوف يعود، ليلقى مصرعه الشهير على درج القصر في الخرطوم. أما الآن، فليس واضحاً إن كان استقال مؤازرة للخديوي. كان بينهما إعجاب متبادل، وكان غوردون يفضل التعامل مع إسماعيل على صلِف ممثل دولته (سير ايفلن بيرنج).

هل هذا أم طبعه الملول الذي لا يثبت على شيء؟

كتب في يومياته كأنه يعزّي نفسه:
«لا تحزن على إسماعيل باشا. إنه فيلسوف وعنده مال كثير. قامر يطلب أقصى الربح وخسر... إنني واحد من الذين خدعهم، لكنني لا أحمل له أي ضغينة... من حسن حظ مصر أنه قد ذهب».

مهما يكن الأمر، فإن إسماعيل قد حمل حريمه وحاشيته ولوحاته النادرة وجواهره الثمينة وأمواله، وكانت تكفيه وزيادة، ولاذ باسطمبول، حيث ظل يتآمر يحاول العودة، إلى أن مات. إنما التاريخ، كما نعلم، لا يحفل بالفرص الضائعة. قليلون هم الذين عادوا بعد أن ذهبوا. وحتى نابليون بونابرت الفحل، حين عاد، لم تكن عودته إلّا كخُلْسة المختلس.

في أثناء ذلك، كان صديق الخديوي الآخر (أمين باشا)، قد قضى ردحاً في الاستوائية، منذ هو مشرف طبي، ثم حين عيّنه غوردون حاكما بدلاً عنه، يوم أصبح هو حاكماً عاماً كان يحب الخديوي إسماعيل، ولكنه آثر أن يبقى. أَلِف العيش في تلك الأرض الشاسعة، بين النباتات والطيور والوحش، التي تُشبع نهمه العلمي

للاكتشاف. عنده زوجته الإثيوبية ـ وربما زوجاته كما يلمّح بعض المؤرخين ـ وابنته التي أسماها فريدة، وكتبه، وبعض المغامرين الأوروبيين الذين التفّوا حوله. منهم إيطالي يدعى (قايْتانو كاساتي)، وألماني روسي اسمه (دكتور جَنْكر). عنده جنوده من المصريين والسودانيين، ومبشرون من مختلف الجنسيات الأوروبية.

كان كأنه حاكم في دولة قائمة بذاتها، بل إن بعض المؤرخين يؤكد أن (أمين باشا) أراد أن يستقل بذلك الجزء من جسد أفريقيا. ولمَ لا؟ لقد اختطف ليوبولد البلجيكي الكنقو، فلماذا لا يختطف هو إقليم الاستوائية بمؤازرة ألمانيا؟

كانت الأرض «سائبة للبيع أو الشراء»، كما قال صديقنا (بونا ملوال)، في خطابه في بوسطن.

صدق. إنما الأرض لم تكن كلها (سائبة). فقط ذلك الجزء في وسط أفريقيا، كان يبدو في عيون الجشع الأوروبي، أنه للبيع أو الشراء أو الاغتصاب الصرف.

لن تلبث أن تنطلق في شمال السودان ثورة تؤكد أن الأرض ليست هملاً. وسوف تصل نذر تلك الثورة إلى (أمين باشا) في معقله في (لادو) في الاستوائية.

■ ■ ■

**في العام نفسه، عام ١٨٨١، حين انطلقت الثورة المهدية في السودان، انطلقت أيضاً الثورة العرابية في مصر. وبينما كانت قوات**

الإمام المهدي تحاصر مدينة «الأبيض» في الغرب، كانت السفن الحربية البريطانية بقيادة الجنرال وُلْسْلي، تضرب مدينة الإسكندرية. وحين سقطت الخرطوم في أيدي الثوار وقُتل غوردون (٢٦ شباط/ فبراير ١٨٨٥)، كان الخديوي توفيق، قد استطاع بمساعدة القوات البريطانية، أن يقضي على الثورة العرابية.

وكان (أمين باشا) في عاصمة إدارته في (لادو) بالاستوائية، بمعزل عن كل هذا. انقطعت صلته بالعالم الخارجي، إلّا ما كان يتسرب إليه من زنجبار. لم يكن حتى عام ١٨٨٦، حين وصلته رسالتان، إحداهما من (كيرك)، القنصل البريطاني في زنجبار، والثانية من (نوبار باشا) رئيس الوزراء المصري، تخبرانه بمقتل غوردون وحقيقة الوضع في السودان. وقد طلب (نوبار) منه، أن ينسحب من الاستوائية، وإذا قرر البقاء، يبقى على مسؤوليته، ولا يتوقع أي مساعدة من الحكومة المصرية.

كان (نوبار) أرمنياً، لا يعرف اللغة العربية، يتحدث التركية والفرنسية. جاء إلى مصر من تركيا مع عمه الذي كان مقرباً إلى محمد علي باشا، وأصبح بمرور الزمن، من رجال السراي، ومن الشخصيات ذات التأثير. وكان شديد الولاء للإنجليز، يدعو صراحة أن تعلن بريطانيا الحماية على مصر.

إلّا أن ذلك فيما يبدو، لم يحبّبه إلى الإنجليز، فقد وصفه القنصل العام (سير أيفلن بيرنج) بقوله:
«إنه وغد ومخادع. ولكنه كُفء ويفكّر بطريقة أوروبية».

وكان الاحتقار أكثر وضوحاً في تقرير أحد موظفي وزارة الخارجية

البريطانية، إذ جاء فيه عن (نوبار باشا):
«إنه مُريح ومناسب للظروف الحالية، ولكنه ليس ضرورياً».

وذلك بالتحديد، كان السبب في مجيئه رئيساً للوزارة - إنه (مناسب للظروف). ذلك أنهم لم يجدوا مصرياً قُحاً قبِل أن يتولى الوزارة في تلك الظروف حين كان الشعور الوطني متأججاً على أثر هزيمة الثورة. كان الشعب المصري ساخطاً على الخديوي والإنجليز والقوى الأوروبية عموماً.

جاءوا به - أو بالأحرى جاء به (سير أيفلن بيرنج) - لينفذ برنامجاً محدداً. أن يطبق في مصر بعض الإصلاحات التي أوصى بها (لورد دوفرن) في تقريره، وكانت الحكومة البريطانية قد كلّفته بذلك. لم يشأ (سير أيفلن بيرنج)، أن ينفذ كل توصيات (لورد دوفرن)، وكان دوره قد أصبح حاسماً في رسم السياسة البريطانية في مصر. بالإضافة إلى ذلك تنفذ حكومة (نوبار باشا) السياسات المالية الصارمة التي فرضها الدائنون الأوروبيون. فوق كل شيء، كان عليه، بتوجيه من (سير أيفلن بيرنج) أن يراعي التوازن الدقيق الذي أملته المصالح الأوروبية المتضاربة في مصر.

وفيما يتعلق بالسودان، كان على (نوبار باشا) أن يعمل على انسحاب الوجود المصري. فيما بعد تُرك الخيار لـ (غوردون) أن يقرر مدى ذلك الانسحاب. وفي الواقع، حين وصل (غوردون) إلى الخرطوم، أخذ يتصرف كما لو أنه لا ينوي الانسحاب.

**حين قامت الثورة العرابية، كان رئيس وزراء بريطانيا هو (قلادستون) زعيم حزب الأحرار. وقد سجل التاريخ له قولة تبدو غريبة من**

رئيس وزراء بريطاني. قال في كانون الثاني/ يناير عام ١٨٨٢:

«لم أتألم أبداً لما حدث، ولكنني مندهش للسرعة التي نمت بها حركة وطنية في مصر، ونشأ حزب وطني. كنت أظن أن ذلك يتعارض مع طبيعة الشعب المصري. كيف حدث ذلك؟ لا أدري. وأغرب من ذلك أن يكون الجيش هو العُش الذي أفرخ هذه الحركة. على أي حال، هذه هي الحقيقة، وهي حقيقة علينا أن نحترمها. وهي تشير إلى احتمالات كامنة في المستقبل. شعار (مصر للمصريين) يعبّر عن عاطفة أتمنى أن تأخذ مداها. ولو قُدّر لها أن تغلب، فإنني أعتقد أن ذلك سوف يكون أحسن حل، بل الحل الوحيد لـ (القضية المصرية)».

سوف يمضي وقت طويل قبل أن يُقدّر لتلك (العاطفة) أن (تأخذ مداها). وسوف يظلون يسيئون فهم (طبيعة الشعب المصري). إنما الآن، في عام ١٨٨٥، فإن حكومة (قلادستون) لم تلبث أن سقطت، بسبب إيرلندة، ولأسباب أخرى، منها أن (قلادستون) لم يسارع إلى إنقاذ (غوردون) فهاج ضده الرأي العام. حتى الملكة (فكتوريا) خرجت عن وقارها وكتبت إليه معبّرة عن سخطها.

خلفه (لورد سولزبري) زعيم حزب المحافظين، خلال ذلك أبحرت سفن تحمل ثواراً سودانيين من أنصار الإمام المهدي أعلى النيل. وصلوا الاستوائية، فانسحب (أمين باشا) جنوباً وترك لهم (لادو). وكان قد استطاع أن يوصل رسالة إلى زنجبار يطلب فيها من الحكومة البريطانية أن ترسل حملة لإنقاذه وإنقاذ الجاليات الأوروبية والبعثات التبشيرية الموجودة معه.

تسلّم الرسالة، (هولمود) مساعد القنصل البريطاني في زنجبار، وفي الحال، رأى في طلب (أمين باشا) فرصة لمدّ ظل النفوذ البريطاني في وسط أفريقيا، فكتب إلى وزارة الخارجية البريطانية، مع رسالة أمين باشا، يقترح أن تحتل بريطانيا في آن واحد، إقليم الاستوائية ويوغندة، وتضمهما معاً إلى السيادة البريطانية.

لا يخفى أن بريطانيا احتلت يوغنده فيما بعد، كما احتلت السودان بأكمله بما في ذلك منطقة الإستوائية. وتجدر الإشارة إلى أن جذور (مشكلة الجنوب)، تمتد إلى ذلك العهد، إذ إن الإدارة البريطانية في السودان ظلت تنظر إلى الجنوب على أنه (منطقة ذات طبيعة خاصة)، وكانت فكرة ضمه إلى يوغندة أو كينيا تراود الحكومة البريطانية وقتاً طويلاً. لم تقبل أن الجنوب جزء لا يتجزأ من السودان، إلّا بعد مؤتمر جوبا في حزيران/ يونيو عام ١٩٤٧.

في ٢٣ أيلول/سبتمبر عام ١٨٨٦، كان (لورد سولزبري) رئيس الوزارة البريطانية، مشغولاً في لندن بقضايا أكثر إلحاحاً. ولما اطّلع على برقية (هولمود) من زنجبار، لم يهتم بها، وقال إن نفقات إرسال حملة لإنقاذ أمين، نفقات باهظة لا تستطيع الحكومة البريطانية أن تتحمّلها. وقال: «أمين باشا مواطن ألماني. مسؤولية إنقاذه تقع على ألمانيا».

مؤتمر الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط الذي انعقد في جامعة (مانشستر) بالتعاون مع قسم دراسات الشرق الأوسط بالجامعة، وأشرف على تنظيمه الدكتور (لُفْت) مدير القسم، شارك فيه عدد من الباحثين والأساتذة من بعض الجامعات العربية مثل جامعة القاهرة والكويت وتونس والرباط، وجامعة العين والجامعة الأمريكية في بيروت، وقد لفت اهتمامي كثرة الأساتذة العرب الذين مثلوا جامعات في أمريكا وأوروبا.

حضر المؤتمر عدد من ممثلي جامعات بعض البلاد الإسلامية، وعدد من ممثلي جامعات آسيا وأفريقيا، وكان الحضور واضحاً من الجامعات الأمريكية والأوروبية والبريطانية.

كان الموضوع العام، هو الوحدة والتنوع في ثقافات منطقة الشرق

الأوسط. وقد تحدث عالمان جليلان في الموضوع بصفة عامة، أحدهما المحقق الشهير برفسور سيد حسين نصر، وهو من أصل إيراني يعمل أستاذاً في جامعة (جورج تاون) في أمريكا. وكنت أسمع عنه منذ زمن، وقد أسعدني أنني تعرفت به في (مانشستر).

إنه بحق مثلٌ لما يجب أن يكون عليه المفكر المسلم في هذا العصر. رجل ناصع الفكر طلق البيان بسيط العبارة، تشرّب روح الإسلام في السماحة ورحابة الصدر والدفع بالتي هي أحسن. هذا إلى أنه يملك ناصية اللغة الإنجليزية، وأنه عالم بعيد الغور في المعارف الفلسفية والحضارية.

وكان لكلمته تأثير واضح.

العالِم الثاني، هو المؤرخ العربي المرموق برفسور نقولا زيادة، أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت، هذا أيضاً رجل يدعو الإعجاب والتقدير. له سبعة وثمانون عاماً من العمر، ومع ذلك فهو جمّ النشاط متوقّد الذهن، كثير الدعابة والمرح. وقد أفاض على المؤتمر من علمه الغزير في محاضراته الثلاث، وكانت إحداها عن تيارات الفكر الإسلامي الأولى، وتأثيرها على الفكر المعاصر في العالم العربي. أرجو له دوام الصحة ومزيداً من العمر في خدمة العلم.

أسعدني كذلك أنني لقيت الدكتور أمين الطيبي، بعد طول غيبة، وكنا قد تزاملنا فترة أوائل الستينيات في هيئة الإذاعة البريطانية، حين كان يعد رسالته للدكتوراه في جامعة أكسفورد. نعمت بصحبته أيام المؤتمر، ودلّني على عدد من المصادر القديمة عن تاريخ

العرب في شرق أفريقيا ووسطها. ووجدت أنه مشغول بتاريخ العرب في زنجبار.

قدّم الدكتور أمين الطيبي بحثاً عن العملات النقدية في عهد المرابطين، ومدى انتشارها وتأثيرها. ولا يخفى أن العملات مصدر مهم من مصادر التأريخ، فلم يغفل المؤتمر الاهتمام بها، وقدمت أيضاً بحوث عن النقد الإسلامي الذي كان متداولاً في بلاد تركستان وفي شرق أفريقيا.

من الأقطار العربية التي وجدت اهتماماً واضحاً مصر التي تطرقت إليها عدة دراسات، منها دراسة رصينة للعالِم الفرنسي (ديدْيير منسيو) من جامعة السوربون الذي تحدث عن الحركة الوطنية بين عامي ١٨٣٠ و١٩٣٠ ودعوة (مصر للمصريين).

ومن الدراسات الحسنة عن العراق، بحث للدكتور (ماربون فاروق) من جامعة (سوانسي) في (ويلز)، وقد تناولت أوضاع العراق في ظل الحماية البريطانية بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٣٢.

المغرب أيضاً تطرقت إليه عدة بحوث، أحدها للدكتورة فاطمة حرّاك من جامعة الرباط، تناولت فيه جوانب من تأريخ الأشراف العلويين.

بطبيعة الحال، لم يهمل المؤتمر قضايا الإسلام وعلاقاته بالسياسة في هذا العصر، وهي قضايا تشغل الباحثين في أمريكا وأوروبا بصفة خاصة. وقد سلطوا اهتمامهم على مصر والجزائر والسودان وتركيا وإيران. ومن الدراسات التي قُدمت، دراسة للدكتور (شارلز تربْ)

من معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، عن الإسلام والعلمانية في الدولة الحديثة في الشرق الأوسط، وناقش الدكتور عبد السلام سيد أحمد من جامعة (كيمبردج) موضوع الدولة الإسلامية في السودان.

لفت نظري الاهتمام العظيم عند عدد من العلماء في أمريكا وأوروبا بموضوع التصوف في الإسلام بوصفه رافداً مهماً من روافد الفكر الإسلامي، بمعناه الواسع. وقد عُرضت بحوث عميقة في هذا المؤتمر، أذكر منها بحثاً بالغ الطرافة للدكتورة (سارة سفيري) من الكلية الجامعية في جامعة لندن، عن مدرسة نيسابور التي كان يتزعمها القشيري، والخلاف بينها وبين مدرسة بغداد التي كان يتزعمها الجنيد، رحمهما الله.

وبطبيعة الحال، كان للغات المنطقة وآدابها مكان بارز في اهتمامات العلماء والدارسين. وفي ما يتعلق بالأدب العربي الكلاسيكي، تحدث الدكتور (وبكي فالتر) من جامعة (فرانكفورت) عن تأثير قصة (ألف ليلة وليلة) على الآداب الأوروبية واستعرض الترجمات الأوروبية لها. وتحدّث الدكتور (جيمس منتقمري) من جامعة (أوسلو) عن أبي نواس. وأتيح لي أن أتحدث عن ملامح الهوية في الشعر العربي قبل الإسلام.

كذلك حظي الأدب العربي المعاصر بعدة دراسات، أذكر منها دراسة عن أدب نجيب محفوظ للدكتور يوسف داود من جامعة (بريتوريا) في جنوب أفريقيا، ودراسة للدكتورة زيبة خان من جامعة أكسفورد عن شعر عبد الوهاب البياتي، ودراسة للدكتورة فريدة أبو حيدر، عن الشاعر اللبناني صلاح ستيتية. كذلك تحدث الدكتور

رشيد العناني من جامعة (أكستر) عن مسرح الكاتب المصري ألفريد فرج. وتحدثت الدكتورة إلهام البسام عن دورة الحياة والحب والموت والبعث في شعر أبي القاسم الشابي، مقارنة إياه بالشعراء الإنجليز الرومانسيين.

ولا يفوتني أن أنوه بطرافة الدراسات التي قدمت عن العمارة الإسلامية، وأخصّ بالذكر مساهمة الشاب السعودي الذي يبشر بالخير، وليد الحميدي، إنه يحضر رسالة الدكتوراه في العمارة في الكلية الجامعية بلندن، وقد تحدث عن قضايا التحوّل الحضري في مدينة عربية إسلامية. ولا يخفى أن العمارة أيضاً، وجه من وجوه الثقافة.

الجمعية البريطانية لدراساتِ الشرق الأوسط، كما لمست في هذا المؤتمر، جمعية تقوم بعمل جدير بالدعم والمساندة من قبل العرب. إنهم يشكون من قلة الاهتمام بهم وبحضارتهم، بل ومن قلة الإنصاف لهم ولإنجازاتهم.

وأشهد أنني لقيت في هذا المؤتمر علماء وباحثين، رجالاً ونساء، انكبّوا على دراسة القضايا ـ مهما تعقدت ـ بتجرد وإنصاف، يستوجبان الإعجاب والحمد.

في ٢٣ أيلول/سبتمبر عام ١٨٨٦، وصلت برقية (هولمود) مساعد القنصل البريطاني في زنجبار إلى لندن، مبلغاً الحكومة البريطانية طلب (أمين باشا) أن ترسل حملة لإنقاذه، ومضيفاً إليها اقتراحاً منه، أن تنتهز الحكومة البريطانية الفرصة، فتحتل إقليم الاستوائية وأيضاً يوغندة، وتضمهما إلى دائرة نفوذها.

لم يكترث (لورد سولزبري) رئيس الوزارة البريطانية باستغاثة (أمين باشا) ولا باقتراح (هولمود). كان من ناحية يتظاهر بأنه لا يريد أن يكلف الخزانة البريطانية نفقات حيازة مستعمرات إضافية في أفريقيا - فيما بعد غيّر رأيه، كما غير بسمارك رأيه، ودخلت كل من بريطانيا وألمانيا في سباق (حيازة المستعمرات الذي سمي (التكالب على أفريقيا) - ومن ناحية أخرى، كان (لورد سولزبري) مشغولاً في المقام الأول بمصر.

يبدو طلب (أمين باشا) النجدة من بريطانيا، غريباً لأول وهلة. اتضح فيما بعد، أنه لم يكن مهدداً أصلاً، فحين وصلت قوات الثورة المهدية إلى مقره في (لادو)، انسحب جنوباً، وكان بوسع تلك القوات أن تحتل الإقليم، ولكنها لم تلبث أن انسحبت. أضف إلى ذلك أن (أمين باشا) كان موظفاً لدى الخديوي في مصر، وقد طلبت منه الحكومة المصرية الانسحاب، فلم يذعن لأمرها، فهل دخل هو الآخر طرفاً في الصراع الأوروبي لتقطيع أوصال أفريقيا؟

في كتابها الممتع (مصر وكرومر ـ بحث في العلاقات الإنجليزية المصرية) الذي صدر في لندن باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٨، تورد الدكتورة عفاف لطفي السيد أمثلة طريفة للمناورات الأوروبية في مصر، وهي مناورات تبدو مثل لعب الأطفال، لولا أننا نعلم أنها كانت وخيمة العواقب.

لورد (سولزبري)، يقول لـ (سير وليم هوايت) السفير البريطاني في اسطنبول:

«أوثر ألا أركن إلى حسن نواياه (يقصد بسمارك). لذلك سوف أسعى إلى أن أكسب ود فرنسا، قدر استطاعتي، دون أن أدفع ثمناً باهظاً لقاء ذلك. السلاح الوحيد الذي يملكه (بسمارك) ضدنا هو تحريض فرنسا بالتدخل (في مصر). بقدر ما نستطيع أن نحول بينه وبين استعمال ذلك السلاح، نكون أحراراً في التصرف».

**وقد زوّده بهذه النصائح لتكون نصب عينيه في سفارته لدى الباب العالي:**

«ابذلْ قصارى جهدك كي تحصل لبريطانيا على النفوذ الضروري للحفاظ على مصالحها الأمبراطورية. وفي نطاق تلك المصالح، ضمان وجود حكومة مصرية قوية ذات قدرة على التنفيذ، تكون حرة من التدخل الأجنبي .(...) جهدنا الدبلوماسي له هدفان: الأول أن نحصل على الضمانات الضرورية لاستمرار عملنا الحالي في مصر. والثاني، هو أن نحصل حين نغادر مصر، على الوضع المميز الذي يعوضنا عن الدماء التي أريقت والأموال التي أنفقت (...) علينا أن نتحاشى إعطاء أي وعد قاطع بالانسحاب. ذلك أن الانسحاب المبكر، هو الثمن الوحيد الذي سوف ندفعه لتحقيق هدفنا الثاني. سوف نقول لأوروبا (نحن المُلاّك هنا في الواقع، وأنتم لا تستطيعون أن تخرجونا (بالقوة). ماذا تدفعون لنا كي لا نتباطأ في الخروج؟)».

يقول بسمارك لسفيره في إسطنبول:
«يجب ألا نتورط مع إنجلترا أكثر مما هو ضروري، فإن ذلك سوف يُغري فرنسا بالتآمر معهم ضدنا».

السفير الفرنسي في ألمانيا يقول للسفير البريطاني:
«يا ليتكم تحددون موعداً للجلاء (عن مصر). حينئذٍ سوف نوافق على إلغاء قانون السخرة، وتعديل قانون الامتيازات، ونضمن لبريطانيا حق العودة إلى مصر في حالات خاصة. إنما فقط اسمحوا لنا أن ننسب إلى أنفسنا الفضل بأننا نحن الذين أقنعناكم بأن تحددوا موعداً للانسحاب».

**كانت مصر هي الغنيمة الكبرى بالنسبة للقوى الأوروبية. ولكن**

مناوراتها ومراوغاتها ثمة، امتدت إلى قلب القارة، حيث دخلت هذه القوى عينها، في سباق متباطىء أول الأمر، ثم متسارع فيما بعد، على اقتسام أفريقيا.

لم تكن بلجيكا دولة ذات وزن، إذا قيست بتلك الدول الكبيرة: بريطانيا وفرنسا وألمانيا. لكن الملك ليوبولد بعد أن نجح في اختطاف الكنقو، ظن أنه قادر على أن يكسب أيضاً الإقليم الاستوائي من السودان، وربما السودان بأكمله إذا ساعدت الظروف، وربحت السوق.

وحيثما وجدتَ (الساحر)، فلا بد أن تجد تابعه وصبيّه، لذلك سوف تلتقي بـ (ستانلي) يظهر على المسرح هذه المرة، يمثل دور المنقذ لأمين باشا، وهو يضمن أن يبيع يوغندة والاستوائية لـ (ليوبولد) والإنجليز ورجل الأعمال الاسكتلندي (ماكنون) في وقت واحد.

وسوف يلجأ مرة أخرى إلى (تبو تب)، المقامر العربي، الذي وجد رغم خبرته ودهائه، أنه يلعب ضد مقامرين عتاة لا قِبَل له بهم.

سوف يخسر مرتين. مرة أنه لم يحقق حلمه في إقامة دولة عربية في وسط أفريقيا. ومرة أنه أصبح أمام التاريخ، القربان الذبيح، الذي باء بآثام كل أولئك اللاعبين، وقد كان أقلهم إثماً.

■ ■ ■

**في عام ١٨٦٦ ـ وذلك بعد عام من مقتل غوردون في الخرطوم، وعام من انعقاد مؤتمر برلين ـ كان (ستانلي) يكمل استعداداته لقيادة**

حملة لإنقاذ (أمين باشا) في الاستوائية. وكان الفارس العربي المغامر (تبُّو تبْ) ما يزال يُعتبر أكبر قوة في وسط أفريقيا.

أخذ ليوبولد الكنقو بالدهاء والمثابرة كما نعلم، ولكنه كان يدرك أن دولته المسروقة، سوف تنهار، إذا لم يحصل على معونة (تبو تب).

كانت دولة عجيبة، يصفها الكاتب الإنجليزي (بيتر قورْباث) بقوله:
«ما كان الكنقو مستعمرة لبلجيكا، ولا كان ليوبولد يحكمه بوصفه ملكاً لبلجيكا. كان نوعاً عجيباً من الدول، أُنشىء قوة واقتداراً، باقتطاع مساحة واسعة من أفريقيا، من وراء ظهر الشعب صاحب الأرض. منحوها لفرد واحد، لم يسمع به أهالي الكنقو من قبل، لتكون له ملكاً شخصياً خالصاً يتصرف فيها كيف يشاء. وقد وصف قانوني بلجيكي هذا الوضع بقوله (سلطته مطلقة لا يحدّها أي قانون.. يستطيع أن يقول بثقة أكثر من ثقة لويس الرابع عشر «L'Etat c'est moi» ـ الدولة هي أنا ـ وقد عبّر ليوبولد نفسه عن ذلك بصراحة تامة فقال «لا أحد يشاركني حقي في الكنقو. إنه حق أخذته بجهدي الخاص ومالي الخاص... أنا مؤسس الدولة، والمتصرف فيها، وصاحبها والسيد المطلق عليها». وكما قال صحافي أمريكي إنه يملك الكنقو، كما يملك ركفلر شركة ستاندارد أُويل)».

هذا الوضع الشاذ أقره مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ برئاسة (بسمارك) لتوزيع الغنائم بين الدول الأوروبية. إنما تُرك لكل دولة أن تثبت وجودها على الأرض، كل دولة حسب شطارتها. وكان ليوبولد يعلم، أن الوجود على معظم الأرض يملكه (تبو تب). يملك المال

والرجال والسلاح. ويستطيع أن يعرقل خطط ليوبولد.

لذلك حين التقى (ستانلي) بـ «(تبو تب) وهو في طريقه لإنقاذ أمين باشا، عرض عليه أن يكون والياً للملك ليوبولد على منطقة (ستانلي فولْز) لقاء مرتب شهري قدره ثلاثون دولاراً.

سأله (تبو تب) بسخرية:
«كيف تعرضون عليَّ أن أكون والياً على أرض أنا أملكها بالفعل؟».

أفهمه (ستانلي) أنه إذا لم يقبل التعاون مع (ليوبولد) فإن دولة الكنقو سوف تنهار، وسوف يتدخل الفرنسيون لملء الفراغ. وسوف يتدخلون بجيش عظيم لاحتلال الإقليم بأكمله.

وعزّز (ستانلي) عرضه، أنه طلب أن يستأجر حمالين من (تبو تب) لقاء ثلاثين دولاراً للفرد، وأن يدفع له (بونّس) مقداره ألف دولار في نهاية المهمة. أي أنه سوف يأخذ مبلغاً إجمالياً يقل عن عشرين ألف دولار.

وطلب منه أن يسافر معهم إلى مقر عمله في طريق طويل، يمر برأس الرجاء الصالح، ثم يتجه شمالاً على شاطىء أفريقيا الغربي إلى مصب نهر الكنقو، ثم أعلى نهر الكنقو إلى وسط أفريقيا.

أول ما خطر لـ (تبو تب) أن يرفض ذلك العرض المُزري. لكنه قبل آخر الأمر تحت إلحاح سلطان زنجبار، وقد كان رجلاً واقعياً، أدرك أن قضيته خاسرة، وأنه يقف وحده في مواجهة طوفان أوروبي كاسح.

القوى الأوروبية كرست ملكية ليوبولد للكنقو، وكل واحدة منها

لها مطامع لم تكن خافية على (تبو تب) في منطقة البحيرات وحوض النيل وشرق أفريقيا، أين يذهب؟ وعلى مَنْ يعتمد؟

السلطان (برغش)(*) البائس، الذي اقتسم الألمان والإنجليز ملكه وأصبح بلا حول ولا قوة يسيّره القنصل البريطاني في زنجبار؟

الخديوي توفيق في القاهرة، وهو عبارة عن دمية يحركها (سير أيفلن بيرنج)؟

الباب العالي في اسطنبول، وقد كان هو الآخر لعبة في أيدي القوى الأوروبية؟

الإنجليز؟ وهؤلاء قد خذلوا من قبل سلطان زنجبار، ولم يمنعوا عنه عدوان ألمانيا. والآن يحرك سياستهم (لورد سولزبري) ـ البراغماتي العتيد. إنه يلعب على طاولة من المقامرين الكبار، على أمل مكاسب هائلة، ولن يشغل باله بلاعبين صغار أمثال (تبو تب).

إذاً فليقبل هذا العرض المزري من (ستانلي)، وهو يعلم أن ذلك سوف يثير سخط جماعته العرب في وسط أفريقيا، وكان أغلبهم يطلب البقاء في الأرض بالقوة، واللجوء إلى الحرب إذا اقتضى الأمر. لكنه كان رجلاً واقعياً، يعلم متى يجب الحرب ومتى يجوز

(*) وجدتُ في كتاب (الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين) تأليف السيد حميد بن محمد بن رزيق بن بخيت عام ١٢٧٤هـ، الصادر عن وزارة التراث القومي في عُمان، أن (برغش) يُكتب بالغين وليس القاف كما أوردتها مصادر أخرى.

الرضوخ للأمر الواقع. ومن يدري؟ لعله يستطيع أن يؤثر في مجرى الأحداث، لعله يفتح طريقاً إلى الشمال.

قبل (تبو تب) العرض، ووقّع الاتفاق مع (ستانلي) في القصر السلطاني، بحضرة السلطان (برغش).

عبّر (برغش) عن سعادته، أنه أهدى إلى (تبو تب) ساعة ذهبية، وألفي روبية نقداً، وأهدى إلى (ستانلي) خاتماً ذهبياً مرصعاً بالألماظ.

■ ■ ■

لم يجد (لورد سولزبري)، الذي خلف (قلادستون) على رئاسة الوزارة، أي مبرر سياسي للتدخل لإنقاذ (أمين باشا). كان يهمه في ذلك الوقت ألّا يثير مخاوف فرنسا وألمانيا بأن لبريطانيا مطامع في الاستوائية وشرق أفريقيا.

لم يذعن لضغط الرأي العام، الذي رأى في وضع (أمين باشا)، وضعاً مشابهاً لما حدث لغوردون. بل إن صحيفة الـ «التايمز» التي قادت الحملة، صوّرت (أمين باشا) على أنه غوردون آخر، محاصر بشعوب همجية في قلب أفريقيا.

هذا الموقف السلبي من الحكومة البريطانية، جعل (ليوبولد) يتصور أنه يستطيع أن يتدخل بطريقة ما في قضية إنقاذ أمين. لعله يخرج بغنيمة كبيرة. لعله يحصل على السودان بأكمله.

لم يكفّ عن المحاولة، وكان قد لجأ من قبل إلى وسيلة عجيبة

للحصول على السودان، أيام حكومة (قلادستون). أوعز إلى (ستانلي) أن يبعث إليه برسالة تبدو تلقائية، يطلب فيها من (ليوبولد) أن تستأجر دولة الكنقو ـ أي ليوبولد ـ السودان من الخديوي، لقاء أجر سنوي مقداره ستون ألف جنيه، وأن يتعهد (ليوبولد) للخديوي بأن يتولى إخماد الثورة المهدية من ماله الخاص، ويدفع للحكومة المصرية مبلغاً إضافياً مقداره ستمائة ألف جنيه، تعويضاً لها عن الخسارة التي تكَبدتها نتيجة قيام الثورة المهدية! وطلب (ليوبولد) من (ستانلي) أن يتفنَّن في رسالته في اللعب على فكرة «إنقاذ الشعوب الهمجية من قبضة المسلمين بغرض ضمها إلى حظيرة الديانة المسيحية».

لم يخيّب (ستانلي) ظن (معلّمه)، فكانت الرسالة، كما أراد (ليوبولد)، آية في البلاغة والتأثير، فبعث بها إلى الحكومة البريطانية، على أنها نداء من القلب، من خبير في الشؤون الأفريقية.

لكن الحيلة لم تنطل على الحكومة البريطانية. عقّب عليها وزير الخارجية (لورد روزبري)، تعقيباً مقتضباً مليئاً بالاحتقار «الحكومة البريطانية لا تنوي التدخل في السودان بوجه من الوجوه. الأساليب التي كانت الحكومة المصرية تتبعها للحصول على المال، هي التي أدت إلى ضياع السودان».

**إنما (ليوبولد) لا يكلّ ولا يملّ. ها قد عنّت له الآن فرصة أخرى، رآها بحسه المرهف للكسب المادي، أنها فرصة ذهبية حقاً. اتصل من توه بـ (وليم ماكنون)، رجل الأعمال الإسكتلندي، الذي أخذ يجمع التبرعات لتسيير حملة لإنقاذ أمين، عرض (ليوبولد) الدعم المالي، واقترح على (ماكنون) أن تكون الحملة برئاسة (ستانلي).**

كان (ماكنون) هذا رجلاً من شاكلة (ليوبولد)، برع في جمع المال، وهو يتظاهر أنه لا يطلب غير عمل البرّ والخير ابتغاء مرضاة الله. وقد كوّن ثروة ضخمة، وكان يملك عدداً من السفن تعمل في التجارة مع الهند.

رأى هو الآخر فرصة لعقد معاهدات تجارية في منطقة البحيرات وفي شرق أفريقيا، والدخول في مشروع خط حديدي إلى الساحل. وكان يطمح في نهاية الأمر، أن يورط الحكومة البريطانية في ذلك الإقليم من أفريقيا.

كان كل من الرجلين، يضمر شيئاً ويظهر شيئاً. (ستانلي)، كان الوحيد الذي يعلم نوايا كل الأطراف، وكان يعلم أنه الوسيلة إلى تحقيقها.

بذل (ماكّنون) جهداً عظيماً لإقناع لورد (سولزبري) ـ رئيس الوزارة آنذاك ـ أن يعطي دعمه المعنوي على الأقل، لحملة إنقاذ (أمين باشا) فقبل على مضض. وكان من نتائج هذا الدعم، أن (سير أيفلن بيرنج) ضغط على الخديوي في القاهرة، فأذعن بأن تساهم الحكومة المصرية بعشرة آلاف جنيه من نفقات الحملة، التي قدّرت بعشرين ألف جنيه.

بمعنى آخر، اضطُرّ الخديوي أن يتكفل بنصف نفقات حملة لا ناقة له فيها ولا جمل. ونحن نذكر أن حكومته طلبت من (أمين باشا) أن يخرج من الاستوائية، فلم يستجب لطلبها. وكان من الحجج التي قدمها (بيرنج) للخديوي، «أن إنقاذ (أمين باشا) ضروري للحفاظ على هيبة الدولة المصرية» أما (أمين) نفسه، فلم يكن يبدو

عليه أنه كان متعجلاً للخروج من الاستوائية. وقد تأكد ذلك من رسالة اكتُشفت بعد زمن، بعث بها إلى صديق له في ألمانيا يقول فيها:

«إذا كان الناس في بريطانيا العظمى يظنون أنني سوف أخرج حال أن يصل (ستانلي)، فهم مخطئون. إنني أنفقت اثني عشر عاماً من عُمري هنا، فهل يليق بي أن أهرب أول ما تسنح فرصة للهروب؟ (...) سوف أبقى هنا مع شعبي حتى أضمن أن مستقبلهم ومستقبل بلادنا آمن (...).

سوف أبقى لأواصل العمل الذي بدأه غوردون، وضحّى في سبيله بحياته. لعلني لا أملك عبقريته ولا قدراته. لكنني على الأقل لا أعدم روحه ولا مُثله العالية (...) إذا كانت إنجلترا ترغب في مساعدتنا حقاً، فيجب عليها أن تعقد معاهدات مع أوغندا و(بنْيورد). لا بد من شق طريق إلى الساحل، يكون آمناً من تقلّبات أمزجة الحكام المحليين البدائيين، ولا يكون تحت رحمة هؤلاء العرب الأشرار. أخرج من بلادي وأترك شعبي؟.. أبداً».

أريد أن أقف عند مؤتمر نظّمه المجلس القومي السوداني في لندن منذ أيام، وأسماه (المهرجان الصيفي ـ عام ١٩٩٤).

أحسّ عدد من السودانيين المقيمين في لندن، وغالبيتهم من الذين لا يعتبرهم الحكم القائم في السودان خصوماً ـ ومنهم من هو متعاطف مع هذا النظام، أو مؤيد له صراحة ـ أحسّوا أن الظروف تدعو إلى تهيئة الوسائل للسودانيين على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والسياسية، للحوار وتبادل الرأي، من أجل الخروج بالوطن من ورطته الراهنة. ولا أظن أحداً ينكر أن الوطن في ورطة.

في طليعة هؤلاء النفر المخلصين، السيد إبراهيم الطيّب الريّح، رجل الأعمال المعروف. وهو إنسان محبّ للخير يتجلى فيه ذلك النزوع السوداني القديم إلى الإصلاح والإحسان ولمّ الشمل. وعائلته

الكريمة في (رُفاعه) ربطتني بها صلات وثيقة منذ أوائل الخمسينيات، إلى أنهم أصهار أخي وصفيّي فتح الرحمن البشير، الذي أهاب به كرمه ونبل طبعه للتصدي لإنجاز مصالحة وطنية كبرى في عهد النميري. ولو أن ذلك تحقق، لاتخذ تاريخ السودان الحديث مساراً آخر.

ومن هؤلاء النّفر أيضاً، كابتن النّور زرُّوق، وهو أيضاً رجل أعمال معروف، بالإضافة إلى أنه مؤيد للنظام ومؤمن بفلسفته. ولكنه بحكم روحه السوداني المتأصل، ينفر من الغلو ويؤثر الحسنى ويرنو إلى لمّ الشمل.

هذا وقد أُنجز المؤتمر، بفضل الدعم المالي والمعنوي من السيد إبراهيم الطيب وأيضاً من الكابتن النور زروق، وكابتن شيخ الدين محمد عبد الله رئيس مجلس إدارة الخطوط الجوية السودانية، التي منحت التذاكر للقادمين من الخرطوم، وهيأت لهم الإقامة.

ولا أخفي، أنني ترددت طويلاً قبل أن أرضى المشاركة في المؤتمر، إذ إن موقفي من هذا النظام معروف، وقد رأيت منهم أعمالاً بدت لي منكرة، فأنكرتُها. وكنت أحسب أن ذلك يحق لي كمواطن بلغ من العمر والتجربة، وما خفت موازينه في حب الوطن. لكنني كنت وإياهم كما قال أبو العلاء رحمه الله:

فيسمع مني سجع الحمام
وأسمع منه زئير الأسد

لذلك خفتُ أن يكون إخواننا ثمة، لا يسعون حقاً إلى الحوار

بغرض الوصول إلى كلمة سواء، بقدر ما يطلبون تحسين صورتهم، وإيهام الناس بأنهم واسعو الصدور، متفتّحو العقول.

ثم أغراني بالمشاركة، أن القائمين بالمؤتمر، والمشاركين فيه، أناس تجمعني بهم صداقات قديمة، وذكريات باقية، وزمالاتُ دراسة، وعلائق وأرحام لم تتقطّع. وتلك كانت تعلو في السودان فوق كل اعتبار. تعلو فوق تقلّبات السياسة وضرورات الحكم. ونحن إن كنا نحنّ إلى السودان، ونتغنّى به، ونتحسّر عليه، فذلك هو السودان الذي نعني، لا سودان العهود التي تقوم وتسقط، والثورات الموهومة التي تهبّ مثل الأعاصير في صحراء العتمور، ثم ما تلبث أن تموت، والصراخ الذي يعلو، ثم يذهب بدداً، والخُيلاء التي تزين لأصحابها أنهم مخلّدون في الأرض، وكان أحرى بهم أن يذكروا أنهم لا أخْطر من (دبيب النمل في تلّ الرّمل).

لا مناص لنا في نهاية الأمر، إلّا أن نعيش أو نموت في تلك الأرض، وتحت تلك السماء. وهي واسعة على أي حال، تتّسع للعابد والجاحد، والشقيّ والسعيد، والثري والمعدم، والأحمر والأسود، وذات اليمين وذات الشمال. وأنت لست عليهم بمسيطر، الله يتولى أمرهم جميعاً.

هذا زمان محنة، وحين يكون الوطن في محنة لعلّه لا يجوز للمرء أن يتمسك بالموقف أو يتشدّد في صدق النوايا. وأنا بعدُ لست خيراً من عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وأرجو ألا يكونوا هم أعظم شرّاً من الحجاج، وإن كان بعض ما فعلوه إلى الآن أشبه بالحجاج.

■ ■ ■

في المؤتمر الذي نظمه المجلس القومي السوداني في لندن، بين العاشر والحادي عشر من شهر أيلول/ سبتمبر، قال السيد إبراهيم الطيب الريح في كلمته الافتتاحية:

«كان هدفنا أيضاً من تكوين هذا المجلس توسيع دائرة التعريف ببلادنا الحبيبة، وبشعبنا الطيب وبثقافتنا وإرثنا الحضاري (...) كما أن المجلس القومي يؤمن بضرورة تهيئة المناخ الصالح للمّ شمل الوجود السوداني في هذه البلاد وإدارة حوار وطني موضوعي هادئ بين أبناء الوطن على اختلاف مشاربهم السياسية وتباين رؤاهم الفكرية، فإنه يؤكد حرصه على ألا يقتصر الحوار على الغرف المغلقة. لذلك أخذ يهيىء لعقد مؤتمرات تناقَش من خلالها القضايا السودانية في فضاء أوسع للوصول إلى ما يصلح حالة البلاد، وتكون فيه سعادة العباد».

هذا كلام جميل، مليء بالحكمة، لأنه يصدر عن إدراك عميق بطبيعة الشعب السوداني. لمّ الشمل، والحوار الهادئ، وتعدد الآراء بغية الوصول إلى الهدف المشترك، ثم الفضاء الواسع، فضاء الحرية، هذه كلها صفات متأصلة في الطبع السوداني.

على امتداد التاريخ، لم يحس السوداني بوطأة سلطة قاهرة تحدّ من حريته لأنه عاش في أرض واسعة لم تستطع الدولة في أي عصر، أن تفرض مشيئتها عليها، عنوة واقتداراً. لذلك ينشأ مفعم بالإحساس بآفاق رحبة يتقلب فيها غير مكترث بشيء، إلّا ما يمليه عليه ضميره.

تجد ذلك في الشعر العامي خاصة، وفي غناء المغنين وأساطير

البطولات. وقد غنى عبد الكريم الكابلي بصوته العبقرية في أمسية من أمسيات المؤتمر، تلك الأبيات الشهيرة:

جيتك بامتثال صاحبي البتمّم كيفي
إبراهيم ثبات عقلي ودرقتي وسيفي
مِطمورة غلاي مونة شتاي وصيفي
سترة حالي في جاري ونساي وضيفي

هذه الأمور الثلاثة الجار والنساء والضيف، هي التي تلزم فيها (سترة الحال) وأكثر ما يأتي اللوم أو (العيب) من ناحيتها، وقد كانت (سترة الحال) دائماً، هي المطلب الأسمى عند السودانيين، كما عبر الشاعر الآخر:

بدور الْبلْ بدور ناقة وهيطة
بدور فرساً سريع آخذ به عيطه
بدور ضيف العشا وأنهم بخيته
بدور السترة لا من ألقى ميته

ما أحسن قوله أنه يتمنى أن يحل عليه الضيف عشاء، بعد أن يكون قد هجع الناس فيوقظ زوجته (بخيته)، ويحثها (أنهم) على صنع القرى، لأن إكرام الضيف في تلك الساعة أدعى للمدح. ولم يخبرنا الشاعر أي ميتة يريد أن يلقى، ولكن واضح من سياق الأبيات أنه رجل حر كريم يريد أن يموت ميتة كريمة.

من هذا التراث العظيم، وهو تراث عربي الروح والبيان، يستمد السوداني الصراحة في القول، والصبر على النوائب والسماحة في الطبع، والجرأة على الحكّام.

كانت (الشرعية) في السودان، دائماً تجيء ليس بواسطة سلطة مركزية غاشمة تفرض إرادتها على الأطراف، إنما بواسطة قبول طوعي يتجه من الأطراف نحو المركز. هكذا كان الحال في دولة (سنّار) ثم حين ثار الإمام المهدي على الحكم التركي، فتسارعت القبائل إلى نصرته.

ولما ورث الخليفة عبد الله الحكم، وتحول إلى حاكم مستبد، انفضّ الناس من حوله، اللهم إلّا عشيرته من قبائل غربي السودان، وبعض أنصار الإمام المهدي الذين ظلوا متشبثين بالولاء لصاحب الدعوة. ولا ينكر أن الإنجليز حين دخلوا السودان عام ١٨٩٨، فإن غالبية الشعب لم تتحمس في التصدي لهم، إذ إنهم كانوا قد ضاقوا ذرعاً باستبداد الخليفة عبد الله، خاصة في سنواته الأخيرة.

ومعلوم أن الإنجليز، سرعان ما خبروا شدة مراس الشعب السوداني ـ رغم ما يبدو عليه من وداعة ظاهرية ـ فابتدعوا نوعاً من الحكم لا نظير له في تاريخ الاستعمار، فرضه عليهم السودانيون فرضاً. أصبح المستعمَرون (بفتح الميم) شركاء في السلطة مع المستعمِرين (بكسر الميم).

وقد أعاد برفسور مدثر عبد الرحيم إلى الأذهان ما حدث في عهد الخليفة عبد الله حين قال في إحدى ندوات هذا المؤتمر:

**«يجب أن نعترف أنه قد حدث انشقاق، اليوم، في المجتمع السوداني، لم يحدث مثله منذ عهد الخليفة عبد الله».**

**هذا والدكتور مدثر عبد الرحيم إسلامي النزعة، وهو ليس على**

خصام مع هذا العهد بل هو من مؤيديه والمشاركين في مؤسساته، وهو عالم مرموق، وقد كان عميداً لكلية الاقتصاد بجامعة الخرطوم.

ولا يخفى أن الانشقاق قد حدث، لأن هذا العهد قد أوحى أول مجيئه، أنه لا يبالي أَرضيَ الناس أم سخطوا. جاء بتصور جاهز للمستقبل يريد أن يفرضه قوة واقتداراً. وقد اتخذ أساليب منافية كليةً لمسيرة التاريخ وطبيعة البيئة بما فيها من قبول للتعدد، ونزوع إلى الوفاق والتراضي، وعزوف عن التطرف والعنف.

■ ■ ■

لفت نظري في ذلك المؤتمر، أن الرجال المتحدثين، جنوبيين وشماليين، كانوا كلهم في حيرة، بدرجات متفاوتة. لم يقل أحد منهم، إن الأمور في السودان تسير كما ينبغي، وذلك بخلاف السيدتين المشاركتين، إحداهما جنوبية والأخرى شمالية، فقد كانتا راضيتين كل الرضى.

ولعل أقرب الرجال إلى الثقة، كان الدكتور حسن مكي، مدير جامعة أفريقيا العالمية ـ وهذه جامعة من هذه الجامعات التي أقامها إخواننا هؤلاء على عجل، ليقال إنهم أحدثوا (ثورة تعليمية). حتى (القضارف) أصبح فيها جامعة. وهم منذ جاءوا يصنعون كل يوم ثورة، فهذه ثورة حبلى بالثورات.

ولا أشك أن الدكتور حسن مكي، يحاول جهده، أن يجعل جامعة أفريقيا العالمية، جامعة بحق وحقيق، فهو إنسان واضح الإخلاص والورع، من هؤلاء الشباب المثاليين، الذين يؤيدون هذا الحكم،

لأنهم يعتقدون أنه يعمل على إقامة مجتمع فاضل، كما كان في صدر الإسلام، وأن السودان مؤهل أن يقود الأمة الإسلامية إلى ذلك الغد المنشود. وقد ذهب الدكتور حسن مذاهب بعيدة في ضرب الأمثلة أن السودان بلد باركه الله منذ القدم، وأعدّه لحمل تلك الرسالة.

إلّا أنني أحسست وأنا أستمع إليه بالشفقة، فقد بدا لي ذلك النقاء، وتلك الرغبة الملحّة لليقين، كأنها ثوب ناعم هش، قد تمزقه أية هبّة من رياح الواقع.

هذا ولأستاذنا الموقر، العالِم الحجة، برفسور عبد الله الطيب، رأي معروف، وهو أن المسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة، لم يذهبوا إلى الحبشة المعروفة اليوم باسم إثيوبيا، ولكنهم هاجروا إلى شمال السودان، وحجته في ذلك أن شمال السودان، كان جزءاً من إثيوبيا، وكان له نجاشي. وله أدلة أخرى كثيرة، تعطي رأيه وزناً. وقد ذكر ذلك في سياق حديثه عن الثقافة، ولم يقصد أن يقول إن للسودان دوراً تاريخياً مميزاً.

سأله شاب جنوبي، أثناء حديثه في هذا المؤتمر، كيف يرجو النظام القائم في السودان، أن يتحاور مع الإنجليز، وهو يريد أن يدخلهم في الإسلام عنوة. صمت برهة، ثم ضحك ضحكته المعروفة، وقال له:

**«على أي حال، رتشارد قلب الأسد، كاد يعتنق الإسلام في بلاد الشام، أثناء الحروب الصليبية. وأخوه الملك جون، عرض على ملك المغرب أن يدخل هو والشعب الإنجليزي كله في**

الإسلام، ولكن ملك المغرب لم يأخذ عرضه مأخذ الجد. ويقال إن الأسرة المالكة في بريطانيا، فيها دم عربي قرشي».

وكان يجلس بجانبي أكاديمي إنجليزي، فقال: «إن معرفته بالتاريخ مذهلة».
قلت له «لو سألته في علم الفلك لوجدته مذهلاً أيضاً».

أما برفسور عبد الرحمن أبو زيد، فقد ركّز في حديثه على التكنولوجيا ودور الجامعات في نقل التكنولوجيا ـ وتحدث عن العلاقات المتينة التي كانت تربط الجامعات في السودان بالجامعات في بريطانيا، وأنها قد تقطعت. وطالب بإحيائها، والاستفادة منها، في نقل التكنولوجيا المتقدمة إلى السودان.

وبهذا الصدد، قال مستر (بيتر افرنقتن)، الأمين العام لجمعية الصداقة العربية ـ البريطانية، وهو رجل محب للسودان، عاش فيه وعرف أهله، وكان حديثه ممتعاً خليطاً من الجد والدعابة، تتخلله عبارات كثيرة بالدارجة السودانية، قال: «نحن لا نعرف ماذا تريدون. استقروا على شيء وسوف تجدون منا كل عون».

نوّه الدكتور عبد الرحمن أبو زيد أكثر من مرة، أن القرن العشرين، لم تبق منه غير سنوات، وأننا نقف على أعتاب قرن جديد. ورغم أنه لم يتطرق إلى مشاكل السياسة والحكم، فقد أحسست من حديثه، أنه يتمنى ضمناً، لو أن هذا الحكم يركز اهتمامه أكثر على ما ينفع الناس في أمور حياتهم من علم وتكنولوجيا وينصرف إلى تبادل المصالح والمنافع، مع بقية دول العالم. وذلك بطبيعة الحال يقتضي فكراً جديداً وسياسة جديدة.

وتجدر الإشارة، أن برفسور عبد الرحمن أبو زيد، هو مدير الجامعة الأهلية في أم درمان. وهي جامعة قامت على أسس متينة وفلسفة علمية بعيدة النظر. ومعظم الفضل في قيامها، يعود إلى صديقنا العزيز المرحوم برفسور محمد عمر بشير، العالِم الفذ والإنسان النادر، الذي ضحى بحياته في سبيلها، وظل يناضل من أجلها حتى آخر رمق.

هذا، وقد أسهم في المؤتمر أيضاً، الدكتور إسماعيل الحاج موسى، وهو وزير سابق للإعلام والثقافة. وكان محور حديثه (الديموقراطية في نطاق الزمان والمكان). وقد فهمت من كلامه أنه يحبذ قيام نظام ديموقراطي للحكم، يضمن مشاركة المواطنين، بما يناسب ظروف السودان. وأيضاً أنه يريد سوداناً لا يغفل موضعه الذي حتمته عليه الجغرافيا والتاريخ. فلا يصبو إلى دور أكبر مما تسمح به تلك الظروف. ولعل ذلك يتفق مع ما نادى به برفسور مدثر عبد الرحمن من قبل حين حذّر مما أسماه (العظمة المتوهمة والعزلة المفتعلة).

■ ■ ■

الأستاذ أحمد عبد الرحمن، من الروّاد في الحركة الإسلامية في السودان، ومن قادتها البارزين. أنفق عمره منذ هو طالب في النضال لتمكينها وانتشارها، وحوكم بالسجن عدة مرات. وكان أحد الذين دخلوا الوزارة باسم الجبهة الإسلامية، وعمل وزيراً للداخلية في عهد الرئيس السابق جعفر النميري.

ويشهد الناس للأستاذ أحمد عبد الرحمن بالاعتدال، والحفاظ على الأواصر القديمة التي تعارف عليها السودانيون. ولأن تلك الأواصر ضعُفت، وبعضها تقطّع في هذا العهد، تحت وطأة الخلاف الحادّ

في الرأي، فإن مما يُحمد للأستاذ أحمد عبد الرحمن، أنه ظل متمسكاً بالصداقات والعلائق والصلات التي جمعته بأناس لا يشاركونه الرأي، ومنهم من يعتبره خصماً سياسياً.

هذا، وقد أخذ أحمد عبد الرحمن يصرّح في الآونة الأخيرة، بآراء لا تتّفق تماماً مع توجهات الحكم القائم، وذلك حكم هو أحد أنصاره بالتأكيد. ولعله يهدف من وراء ذلك، إلى لمّ الشمل الممزّق، وتضميد الجراحات التي ألحقها النظام بمعارضيه، وتقريب المسافات بين الآراء المتضاربة، في محاولة جريئة لإيجاد إجماع واسع، يمكن أن يصبح منطلقاً للوطن للخروج من ورطته. وذلك والحق يُقال، دور جليل، إنْ كان الأستاذ أحمد عبد الرحمن، ينوي فعلاً أن ينهض به.

كانت مساهمته في إحدى ندوات المهرجان الذي نظّمه المجلس القومي السوداني في لندن، مساهمة بالغة الأهمية، وربما تكون إرهاصاً أنه ينوي فعلاً أن يقوم بذلك الدور. وقبل أن أعرض أفكاره، أريد أولاً أن أتحدث عن سيدتين ساهمتا في ندوة «بناء السودان مسؤولية أبنائه»، وكانت كل واحدة منهما راضية كل الرضى بما جرى ويجري في ظل هذا النظام.

الأولى جنوبية، وهي السيدة (آجْنس لكودو)، التي تشغل منصباً رفيعاً، فهي (حاكم) ولاية بحر الغزال، أو بالأحرى (دولة) بحر الغزال لأن هذا الحكم قد قسم السودان ضربة لازب إلى (دول)، كل منها تتمتع ـ نظرياً ـ باستقلال ذاتي، هو أقرب إلى الاستقلال منه إلى اللامركزية الإدارية. وتتّحد هذه الدول، في نظام فدرالي، كما في (الدول الأمريكية المتحدة)، وتلك عندي هي الترجمة الصحيحة لعبارة (United States of America). (الولاية) في

اللغة العربية كما أفهمها، هي إقليم من قطر يُحكم حكماً مركزياً محضاً.

كان الجدل حول الفدرالية في العهود الماضية، ينصبّ على الجنوب وحده بسبب أوضاعه المعروفة، ولم يفكّر أحد تفكيراً جاداً، أن يكون ذلك نظاماً للحكم يشمل القطر كله. وهو على أي حال، قرار جسيم، محفوف بالمخاطر في أحسن الظروف، ولا تُقدم عليه الدول جزافاً.

ومعروف أن البريطانيين، يفكرون منذ سنوات، في ما يسمونه الـ (De Volution) لاسكتلندا وويلز، ولا يجرؤون على تطبيقه، وهو نظام أدنى درجة بكثير من النظام الفدرالي. إنما الحكم الحالي في السودان، لديه جرأة عجيبة أشبه بالتهور، على فرض تغييرات جذرية، بين عشية وضحاها، دون إعداد العدة، أو حسبان العواقب. حساب العواقب يأتي في ما بعد، ولم تكن أيٌّ منها سليمة لحد الآن.

فيما نرى الرئيس السابق جعفر النميري، حين أبرم اتفاقية (أديس أبابا) عام ١٩٧٢، لم يذهب إلى حد الاعتراف بنظام حكم فدرالي للجنوب، ولكنه وافق على نظام حكم (إقليمي).

ويذكر الدكتور منصور خالد، وهو أحد صنّاع اتفاقية (أديس أبابا)، في كتابه عن النميري وثورة أيار/ مايو، الذي صدر في لندن باللغة الإنجليزية، عام ١٩٨٥، أن الاتفاقية اعترفت للجنوب (بقدر من الاستقلال الذاتي).

وينوه الدكتور منصور خالد في كتابه، أن (الإسلاميين) كانوا من

أشد معارضي تلك الاتفاقية، لأنهم قدّروا أن إعطاء الجنوب حكماً ذاتياً، سوف يضر بالإسلام، ويطلق اليد للنشاط الكنسي التبشيري في جنوب السودان.

كذلك يذكر، أن الاتفاق، اعتبر مناطق الجنوب الثلاث (بحر الغزال والاستوائية وأعالي النيل) إقليماً واحداً. وإذْ إن السيدة (آجنس لكودو)، هي (حاكم) ولاية بحر الغزال، فلعلهم قسموا الجنود إلى ثلاث ولايات. ونحن نعلم أن قرار النميري بإعادة تقسيم الجنوب إلى ثلاثة أقاليم، خلافاً لما نص عليه اتفاق أديس أبابا، كان السبب في اشتعال الحرب من جديد، وانهيار عهد النميري بالضرورة.

هكذا جاءت السيدة (آجنس لكودو)، إلى لندن، مفعمة بالحماسة للنظام القائم، كما اتضح من حديثها في المؤتمر. ولا أشك أن إخواننا ثمة، قدروا أنهم يحققون فوائد عدة بواسطتها. فهي سيدة، وهي جنوبية وهي مسيحية. ولعلها تقدم حجة ناصعة، أن هذا الحكم، هو أكثر تحرراً وتسامحاً وعدالة مما يزعم خصومه من السودانيين وغيرهم.

لكن، لسوء الحظ جاءت تلك السيدة الفاضلة (أصدق مما يُصدّق). إذا صحت ترجمة العبارة الإنجليزية (Too Good to be True). كانت حماستها تنم عن إحساس عميق بالشك والقلق، فهي تعلم علم اليقين أن الجنوب يغلي بتيارات قوية مناهضة للحكم، وبعضها مناهض للشمال برمته. وتعلم أن زعماء الجنوب الذين يصنعون الحرب والسلم، موجودون في نايروبي وكمبالا ولندن وواشنطن، وفي الجنوب نفسه، حيث الحرب سجال بينهم وبين جيش الحكومة. إنها لا تعدو أن تكون (زعيماً) مؤقتاً في أوضاع مؤقتة.

كان حديثها مثل خطب الوعظ في الكنائس. خطر لي أنها ربما تكون من أتباع المذهب البروتستانتي الكالفيني. أسلوبها خليط من الوعظ والأمر، وهو أسلوب هذا العهد، الذي يحس ولا ريب، أن لديه سلطة (أخلاقية)، ليست لدى الآخرين. ولاحظت فيما بعد، أن زميلتها الشمالية المسلمة، تتحدث مثلها، كأنها صورة منها، أو كأنها هي.

قالت لنا بتلك النبرة، أن الجنوب بخير وأن السودان بخير. كانت تتحدث بلغة إنجليزية تتخللها عبارات عربية بلكنة جنوبية، لا تخلو من الجاذبية. قالت «مش عاوزين متفرّجين. كل واحد عنده كلام يجي يقوله جوا السودان... لا توجد مشكلة. المشكلة الوحيدة الباقية هي إيجاد الحل».

خطر لي، وأنا أصغي لتلك السيدة الفاضلة، أن النّظم (اليقينية)، دائماً تجيء بخارطة جاهزة للمستقبل. لا تستطيع إنجازها بطبيعة الحال، إنما يحدث شيء مختلف كلية. هذا الحكم جاء ليرفع ألوية الإسلام في غَيَابات الجنوب. لم يستطع لأن الجنوب لم تبق فيه مساجد ولا كنائس. دمّرتها الحرب الضروس. لكن مقابل ذلك، قامت كنائس في الشمال، في أماكن لم تسمع غير نداءات المؤذنين منذ أكثر من عشرة قرون.

خطر لي أيضاً، أن هذا الحكم، ربما يكون قد صنع شيئاً لم يخطر على بال أحد من قبل. أنتج نمطاً جديداً من البشر الكالفينيين بروتستانت، ينطقون بلسان المسلمين اليقينيين، ومسلمين يتحدثون لسان الكالفينيين البروتستانت!

■ ■ ■

لم يغب عن بالي وأنا أستمع إلى الدكتورة زكية عوض ساتّي عميدة كلية الآداب بجامعة الخرطوم، أنها ابنة أستاذنا الجليل المرحوم عوض ساتّي. كان من رجال التربية النابهين. ومن الفوج الأول من السودانيين الذين درسوا في الجامعة الأمريكية في بيروت.

كذلك كان المرحوم عبيد عبد النّور، الذي درّس لنا تاريخ الدولة الأموية والدولة العبّاسية في مدرسة (وادي سيّدنا) الثانوية، لم يكن يملّ من ترديد العبارة (المُلك عقور)، وأحياناً يقول (المُلك عقيم). وكان يعجبه قول شوقي:

لبستْ بُردَ النبيّ النيِّراتْ
من بني العباس نوراً فوق نور

وهو صاحب النشيد الذي حدا به الناس في ثورة الجيش على الإنجليز عام ١٩٢٤:

يا أم جدايلْ قُودي الرَّسن
واهتفي فلْيحْي الوطنْ

درَج، كما درَج كلُ أولئك الرهط الصالحون رحمهم الله جميعاً، وبعض إخواننا الذين يحكمون اليوم، تعلّموا على أيديهم، ولكن لا يبدو أنهم استفادوا منهم شيئاً فالوطن ما يزال بعد نحو أربعين عاماً من الاستقلال، يقوم ويقع.

لأجل ذلك كلّه، أصغيت للدكتورة زكية باستغراق عظيم. في مقتبل العمر، ولا أظنها عدت الأربعين. وإذا كان إخواننا ثمة، أرادوا أن يرسلوا إلى لندن، دليلاً ناصعاً على ثورة إنقاذهم، فقد

كادوا يفلحون، لولا أنها كانت كما قال أبو العلاء:

فـمـا كـذبـتْ ومـا صـدق الـقـيـانْ

وجهها القمحيُّ يتوهّج بالحماسة، مثل زميلتها الجنوبية الأبنوسيّة الوجه (حاكم) بحر الغزال. تلك خبّرتنا أن الأحوال في الجنوب مستقرة، وهذه تتحدث عن الحرب، وتسميها جهاداً، وتقول أن الأمهات لا يبكين أبناءهن القتلى، ولكنهن يفرحن أنهم يموتون شهداء.

هذا، وقد أطنبت الدكتورة زكيّة في الثناء على العهد القائم، أنه أنصف النساء واحتفى بهنّ كما لم يفعل حكم آخر من قبل. فتح لهن الأبواب، وهيّأ لهنّ الفرص للصعود إلى أعلى المناصب.

لعلّ الحكم كان كريماً معها ومع زميلتها الجنوبية. لكننا نعلم أنه كان بخلاف ذلك مع كثرة من النّساء، وعزلن من أعمالهن دون مبرر. والواقع، الذي لا شك فيه، أن تنكيل هذا العهد بجموع غفيرة من موظفي الدولة، هو من ألأم ما يمكن أن يوقعه أي حكم بمواطنيه.

إنما أعجب ما سمعته من الدكتورة زكية عوض ساتّي هو أن ظروف العيش في السودان طيبة، وأن الناس راضون بقسمتهم، وأنهم تغلبوا على الحصار الاقتصادي بالاعتماد على أنفسهم.

وقالت (الناس آكلين شاربين والحمد لله).

**لهم الله. هذا بالفعل، كما حدث لإبل أبي العلاء (تخيّلت الصباح معين ماء)، ولو شاء لقال (تخيّلت السّراب)!**

من حسن الحظ، أنه يوجد أناس أمثال الأستاذ أحمد عبد الرحمن، لم يمنعهم إيمانهم بفلسفة هذا العهد، أن ينظروا إلى أفعاله بعيون مفتوحة وقلوب واعية. هؤلاء يدركون أن العهود تجيء وتذهب، والأوطان هي التي تبقى، وأن الهدف يجب أن يكون بقاء الوطن، وليس بقاء أيّ حكم أو نظام.

ارتفع صوته من قبل في الخرطوم، في المجلس الانتقالي، وهو مجلس مُعيّن، بين مجموعة من الأصوات، منبهاً إلى أخطاء الحكومة وتجاوزاتها الخطيرة أحياناً بالتعدّي على حقوق المواطنين. وندّد بأساليب القهر التي تنتهجها بعض وسائل الأمن. ولا يخفى أن هذا النظام قد ابتدع من وسائل المخابرات والتجسس والتلصص على الناس، ما يدعو حقاً إلى العجب.

سرّني جداً أن الأستاذ أحمد عبد الرحمن، قال في ندوة لندن، وكأنه يرد على الدكتورة زكية، أن الحرب الدائرة في الجنوب ليست جهاداً. واستمعت بسرور وإعجاب إلى قوله (لا توجد دولة إسلامية في السودان).

أعجبني أيضاً عرضه لفكرة الحكم الفدرالي، ما لها وما عليها. ذلك لأن له خبرة واسعة في الإدارة، ومعرفة عميقة بأساليب الحكم في دول أخرى، مثل بريطانيا وأمريكا. وقد فهمت من حديثه، أنه يحس أن الحكم القائم، قد تعجّل تطبيق نظام الحكم الفدرالي، دون أن يستعدّ لذلك كما يجب.

ورغم أن السيّد أحمد عبد الرحمن يعتقد أن النظام الحزبي التعددي، لا يناسب ظروف السودان، ولكنه يحبّذ قيام حكم يعتمد

على قاعدة واسعة من الإجماع والمشاركة.

كل هذه خلافات جوهرية في الرأي، مع توجهات الحكم القائم. ولنا أن نسأل، إلى متى وإلى أي حد يظلّ الأستاذ أحمد عبد الرحمن مؤيداً لنظام لم يعد مؤمناً بتوجهاته ولا راضياً عن ممارساته؟

مهما يكن، فقد بدا لي مما سمعت منه، أن أحمد عبد الرحمن بدأ يستصرخ كوامن ذاته الأصيلة، لينهض بدور عظيم، من الواضح أن الظروف قد تهيأت له، إن هو أقدم، كما يحسُن الإقدام، فسوف يذكره التاريخ لا ريب، ولعلّه أيضاً يسدي خدمة لـ(جماعته). إنهم وضعوا أنفسهم، ووضعوا الوطن، في مأزق فادح. ويا ليتهم يذهبون بسلام.

وبعد، ففي كل ليلة أيام المؤتمر، بعد أن يصمت الجدل والهرج والخلاف، كان ذلك الفنان الرائع، عبد الكريم الكابلي، يغنّي بصوته العبقري. يغني من الماضي البعيد والقريب، بالدّارج والفصيح، مذكّراً الناس بوطن آخر وشعب آخر، وطن عظيم وشعب كريم. وهما في متناول اليد، فكيف تأتّى لهم أن يضلّوا إليهما الطريق؟

يا سيدي أصلحك الله. مرّة أخرى أقول لك ما قاله الشيخ للمُريد.... إن الذي تبحث عنه قد تركته وراءك ببسطام.

## ٢٤

بيْن كل ما قرأت من رثاء في العميد يوسف بدْري رحمه الله، وقد وافاه الأجل في تونس منذ أسبوعين، لم أجد أبلغ أثراً في نفسي من الكلمة التي كتبها أستاذنا الدكتور بشير البكري، حفظه الله وأدام عليه نعمة العافية. نُشرت الكلمة في صحيفة «الخرطوم» التي يصدرها من القاهرة ابنُ أختنا المقدام الدكتور الباقر أحمد عبد الله.

في كلمة الدكتور بشير، على قصرها وعفويتها، الخصالُ كلها التي عُرفت عنه. الوفاء، وكرم الطبع، والحكمة والعلم مع البساطة والتواضع، والإيمان بأن الخير غالب في الحياة، وأن العمل والتطبيق، هما رائدا الفكر والتنظير. وفوق ذلك كله، عباءة واسعة من تلك السَّماحة السودانية التَّالدة التي كانت ـ ونرجو أن تظل ـ تكسو نتوءات الأفكار، وغلواء المقاصد فتصير الأمور متناسقة متقاربة، وإن بدت متباعدة متنافرة.

ذلك هو الإرث العزيز الذي تجمّع للسودانيين من تاريخهم وأحوال عيشهم عبر عشرات القرون. إن أضاعوه أضاعوا كل شيء. وحين تجد أناساً ـ رجالاً ونساء ـ تلمس منهم الحرص على ذلك الإرث، تحس بالطمأنينة، والتقدير لهم والحب. وحين يرحل أحدهم، تطول الحسرة، لأن الذي يضيع برحيله شيء كثير.

كان يوسف بدري رحمه الله، رجلاً فذاً، من جيل كله أفذاذ. تطاولت أعناقهم إلى السماء، وظلت أقدامهم ثابتة على الأرض. امتلأوا علماً وخبرة وتجربة، وتجلس إلى الواحد منهم، فكأنه في بساطته وعدم تكلّفه، راعي إبل من أرض البطانة، أو زَرّاع من أرض الجزيرة.

ورث العميد مدارس (الأحفاد) عن أبيه العظيم الشيخ بابكر بدري ـ وكان قد بدأها مدرسة صغيرةِ في (رفاعة) لتعليم أحفاده ـ فانطلق بها إلى غاياتها القُصوى حتى وصلت إلى مستوى جامعات للبنات والبنين، فيها كل فروع الجامعة من هندسة وطب وغيرها.

في أثناء ذلك لم يتوقف (العميد) نفسه عن التعلّم، وكان ضمن البعثات الأولى التي أوفدتها حكومة السودان إلى الجامعة الأمريكية في بيروت فدرس وهو يعمل حتى نال شهادة الماجستير وشهادة الدكتوراه. وبذلك طبّق في حياته مبدأ (تعليم الكبار) و(التعليم المستمر)، كما نوّه الدكتور بشير في رثائه له.

**لكن كلمة الدكتور بشير البكري لم تكن رثاء محضاً. لم تكن حسرة وتوجعاً على فقد صديقه العزيز وأحد رفقاء دربه ـ وإنها لكذلك. إنما الدكتور بشير، حفظه الله، انطلق من ظلام الفجيعة**

إلى أمل استمرار حياة الأمّة، ومن الحسرة على فقْد إنسان واحد، مهما كان عزيزاً، إلى تذكير الأمة بمغزى حياة ذلك الإنسان، حتى تضيفها إلى حصيلة القيم التي تعينها على النهوض والبقاء. لذلك قال مخاطباً الفقيد:

«غرست شجرة في دارك كي يستظل تحتها (إخوان الصفا) و(السمّار).. لا يناقشون مشاكل (الأحفاد) وشؤونها فقط بل شؤون البلاد كلها. وكأنها برلمان ذلك (المجتمع المدني) الذي حرصْتَ أن يقوم بعيداً عن السلطة، وهو في الوقت نفسه سلطة زمنية وروحية. أكانت هي (بيت الحكمة)؟ أكانت (منتدى الخريجين)؟ أكانت (كرمة ابن هانىء)؟.

إنها كانت ذلك كله. حرية في الرأي، وسلامة في القصد، وجمعاً للشمل، وبيتاً للمستقبل، وملجأً للحائر، ومحراباً للعابد.

وكنت أنت كل ذلك يا عميد العمداء.. الشورى والحق والجمال».

وصف الدكتور بشير صديقه العميد رحمه الله، وأيضاً وصف نفسه، أبقاه الله، لأنه هو أيضاً كل ذلك. ووصف مدينتهما العتيدة أم درمان، وهما عريقان في أهلها. وصفها كما أصبحت حلماً في الخيال، ولم يطل العهد بها في الحقيقة.

وكذلك وصف السودان كما عرفاه، وعرفناه منهم ومن أمثالهم من أساتذتنا الأبرار، وآبائنا وأمهاتنا الصالحين، الذين أقاموا على سفر، وفارقوا على عجل، ولم يأخذوا من الحياة إلّا كما يأخذ الطائر بمنقاره من البحر.

كل كلمة في تلك الفقرة عميقة الدلالة بعيدة المرمى.

الشجرة في فناء الدار، كيف تنمو حتى تَفيء ظلالها على ما حولها؟ هل بالضوضاء والبيانات العسكرية والأناشيد الحماسية؟

(المجتمع المدني)، البعيد عن إجحاف السلطة، حيث كل فرد يبذل قصارى جهده، لا خوفاً أو طمعاً، بل إيماناً وطواعية.

بيت الحكمة ونادي الخريجين وكرمة ابن هانيء. حرية الرأي وسلامة القصد وجمع الشمل. بيت المستقبل وملجأ الحائر ومحراب العابد..

خلاصة القول، ناسٌ أحرار في بلد حرّ، لا تُرفع فوق رؤوسهم السياط، ولكن يعملون كما يعمل الأحرار، نخوةً ومروءة وتقديساً للواجب. الواحد منهم لا تحدّه إلّا حدود مواهبه، ولا يخشى إلّا الله والذئاب على غنمه.

لأجل تلك المعاني، نحزن لفقد إنسان مثل يوسف بدري، رحمه الله. ونفرح ونحمد الله أن بيننا أمثال بشير البكري، حفظه الله وأمدّ في أيامه.

# ٢٥

منذ أن وفد الشاب النابغة، المرحوم معاوية محمد نور على القاهرة في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن، لم يقم جهد ثقافي سوداني في مصر، إلّا قلة من الجهود المتقطعة. كانت جرأة عظيمة من معاوية محمد نور في ذلك الوقت. كان بوسعه بعد أن تخرج من كلية، غوردون، أن يفعل كبقية أبناء جيله، فينخرط في سلك الخدمة المدنية في ظل الإدارة البريطانية. وكان سوف يصير له شأن بلا شك، فقد كان نبوغه المبكّر يبشر بذلك.

والمفكّر في مصر، لا بد أن يدرك إلى أي حدّ ساهم ذلك الشاب السوداني الأوحد ـ إلّا ما كان يجده من تأييد معنوي من المرحوم عباس محمود العقاد ـ في إغناء الحياة الثقافية في مصر، ودعم حركة التواصل الفكري بينها وبين السودان.

كان كرماً من مصر ـ ومن طبعها الكرم ـ أن تفسح له المجال

ليكتب في كبريات صحفها، وتقبل منه أن يقارع كبار مفكّريها.. وكثيراً ما كان ينتصر عليهم، فقد كانت ثقافته عميقة شاملة، وكانت عقبريته واضحة لا مراء فيها. ولعل كثيرين في ذلك الوقت لم ينتبهوا للمعنى (الدقيق) لوجوده بينهم. كان أخاً شقيقاً ومحباً، لكنه لم يذهب إلى مصر يحمل ولاء سياسياً. كان يؤمن بالوحدة.. ليس إرضاء لمصر بل إرضاء لنفسه وقناعته.

مرَّ زمن طويل، لم يحدث فيه جهد مماثل، إلى أن جاء هذا الشاب المقدام الدكتور الباقر أحمد عبد الله، بعد أكثر من ستين عاماً، فأنشأ «دار الخرطوم للصحافة» في قلب القاهرة.

كان ذلك مواصلة لما بدأه معاوية محمد نور، وكأنه أيضاً استجابة للنداء الذي صاح به ـ منذ أكثر من ستين عاماً أيضاً ـ ذلك الشاعر السوداني الضخم:

يا ابن مصرٍ، وعندنا لك ما نأ
مُلُ تبليغَه من الخير مصرا
قل لها في صراحة الحقِّ
والحقُّ بأن يُؤثر الصراحةَ أحرى
وثّقي من علائق الأ
دب الباقي ولا تحفلي بأشياء أخرى

وفي تلك القصيدة يقول الشاعر:

كيف يا قومَنا نباعد من فِكْرين
شدّا وساندا البعضَ أزْرا؟
كيف قولوا يجانبُ النّيلُ
مجراهُ ويجري على شواطىء أُخرى؟

ذلكم التجاني يوسف بشير العبقري. لم يسكن في مصر ولم يزرها. أحبها على البعد. وسؤاله ما زال يتردد منذ أكثر من ستين عاماً، تطويه رياح وتنشره رياح. لكنه لم يصل بعد إلى آذان بعض الناس، على عُدْوتيْ النيل.

حسْبُ هذا العمل الإعلامي أن ينوَّه به، إنه عمل إيجابي في زمان امتلأ بالسلبيات. ها نحن نرى المؤسسات المصرية في السودان، الثقافية والتعليمية، تُصادر، والبعثات الدراسية إلى مصر تتوقف، وحركة الناس بين القطرين توضع لها العراقيل كما لم يحدث حتى في عهد الاستعمار، ويكاد التوتر في العلاقات الرسمية يصل ـ لولا الحياء ـ حد القطيعة الكاملة ـ في وسط كل هذا الخراب، لا يملك الإنسان إلّا أن يعجب بعمل ثقافي سوداني بنّاء ينهض في مصر.

بنى الباقر أحمد عبد الله داره الثقافية الإعلامية، على أساس من تعدد وجهات النظر، واحترام حق كل ذي رأي، أن يعبر عن رأيه بحرية. ولم يقتصر اهتمام الصحيفة بالسياسة، ولكنها اعتنت عناية واضحة بالثقافة والفكر والفن والتاريخ.

وكما يحدث دائماً، فإن الناس حين يجدون الحرية، تتوقد قرائحهم وتقوى حماستهم على العطاء والإبداع. وهكذا أصبحت صحيفة «الخرطوم» في وقت قصير، منبراً حرّاً بعيد الأثر، وملتقى رحباً اجتمع فيه كتّاب وكاتبات، من سياسيين وأكاديميين وأدباء وشعراء ومفكّرين. شيوخاً وشباباً ومخضرمين. شماليين وجنوبيين، ساخطين على الحكم ومؤيدين. ولا أشك أن «الخرطوم» سوف تكون في المستقبل مرجعاً قيّماً لدارسي هذا العصر في حياة السودان.

كلهم يستحق الإعجاب، وحسبي أن أنوّه في هذا الحيز الضيق بـ (جمرات) أستاذنا محمد توفيق حفظه الله. كانت قد همدت كما همدت أشياء كثيرة عزيزة بضياع الديموقراطية. لكنها لم تمت، ظلت تتوقّد تحت الرماد وتنتظر. وها هي ذي قد هبّت عليها رياح «الخرطوم» في القاهرة، فإذا هي كما كانت، دفئاً وضوْءاً ووهجاً. فطوبى للجمر، وطوبى لموقد الجمر، فيا طالما من مثله اشتعلت نيران الحرية.

أغلب الظن، أن منظمة اليونسكو بحسّها الحضاري، العميق ـ وهو حسّ مستمد من أهدافها ـ تعمّدت أن يكون هذا اللقاء في مدينة برشلونة بإسبانيا. وهو واحد من مجموعة ندوات ومؤتمرات ولقاءات تعقدها المنظمة بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية ومنظمات دولية أخرى، تحت شعار (ثقافة السلام)، بقصد بث روح جديد في نفوس البشر وعقولهم. والأمل هو، أن البشرية بعد أن ذاقت الأهوال من الحروب والصراعات، سوف تنزع إلى إيجاد حلول لمشاكلها بالحسنى، وسوف تجد أن التعايش السلمي، أجدى من تبديد الطاقات في الحروب.

بهذه الوسيلة، يمكن القول، أن منظمة اليونسكو حققت انتصارات لا يستهان بها، بعقد لقاءات بين الأطراف المتصارعة في السلفادور وموزمبيق والفيليبين وغيرها.

كان لقاء برشلونة عن مشكلة جنوب السودان، حيث ظلت رحى الحرب تدور بين الشمال والجنوب منذ الاستقلال، أي على مدى أربعين عاماً باستثناء عشر سنوات من السلم، عقب اتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢.

لم يكد السودان يتنسّم رياح الحرية بعد جلاء الاستعمار، حين حلّت عليه تلك اللعنة. قُتل من الأطراف المتحاربة ما لا يعلم عددهم إلّا الله، لكنهم يقدرون بمئات الألوف. وهم (أطراف)، لأن الجنوبيين يحاربون الشمال، وفي الوقت نفسه يحارب بعضهم بعضاً. وكذلك الشماليون. وتقدر منظمات الأمم المتحدة أعداد النازحين من شقّي القطر، المبعثرين في الدولة المجاورة، وفي أقصى أركان الأرض، بما يربو عن سبعة ملايين.

في أثناء ذلك، لم يأل الوسطاء في العالم جهداً ـ وخاصة من الدول المتاخمة للسودان ـ في عقد لقاءات بين أطراف الصراع، بغية إيقاف تلك الحرب المدمرة. إنما صعَّب الأمر، أن كل فريق كان يجيء، وهو يحمل قناعاته الثابتة، ومخاوفه وأحياناً أحقاده وحزازاته. وبعض تلك الحزازات، كما قال الشاعر العربي القديم:

وقد ينبت الخطّي على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هِيَ

**وما أكثر الخطّي الذي ينبت في منطقة السّد في أعالي النيل! وما أكثر المذابح والجرائم والحماقات التي ارتكبت باسم التاريخ!**
**لكن هذا اللقاء في برشلونة كان مختلفاً ـ أو هكذا نرجو. كان لقاءً فكرياً وثقافياً، تحت مظلة منظمة فكرية ثقافية، ومنظمة دولية أخرى ـ**

برنامج الأمم المتحدة للتنمية ـ لا تستطيع أن تنجز مهامها إلّا في مناخ من الاستقرار السياسي. ذلك لأنها تُعنى بقضايا العيش. قضايا الغذاء والكساء والدواء والتعليم. وهي قضايا يزعم هؤلاء القادة أنهم يسعّرون نيران الحروب بسببها، لكن الشعوب تكون دائماً هي الوقود لتلك الحروب، التي تُشنّ باسمها، ولا تكون مسؤولة عن نشوبها.

وربما كان عدْلاً، أن يكون أغلب المشاركين من الجنوب. ذلك لأنهم ـ كما يزعمون ـ هم الضحية. هم المظلومون المُعتدى عليهم، والشماليون هم الظالمون المُعتدون. منهم من ينتمي إلى المنظمات المسلّحة التي تحارب الحكومة، وأكبرها المنظمة الشعبية لتحرير السودان، التي يقودها (جون قرَنْق). وبعضهم من الذين انحازوا إلى صف الحكومة وقبلوا أن يتعاونوا معها. وقد تعمّدت الحكومة أن يكون وفدها مناصفة بين الجنوب والشمال. والهدف واضح. تريد أن تقول إنها حكومة شرعية تمثل القطر كله، وأنْ ليس كلٌّ الجنوبيين ضدها.

كان الشماليون أقلية، والذين ليسوا منحازين لهذا الفريق أو ذاك يعدّون على أصابع اليد. وكان قدري أن أكون شمالياً لا أحمل ولاء للحكم القائم ولا للذين ينازعونه الأمر، ويطلبون أن يحلّوا محله. ولأني، كما أقول، للوطن في صيرورته الأبدية. وما أصعب ذلك من ولاء!

لم تُهمل منظمة اليونسكو شيئاً في تنظيم هذا اللقاء. ولكنها فطنت إلى أمور دقيقة ذات دلالات عميقة. أحسنت اختيار المكان، كما سنرى. وأحسنت اختيار الرئيس. إنه الدكتور أحمد الصيّاد ممثل اليمن في منظمة اليونسكو، وهو أيضاً رئيس المؤتمر العام للمنظمة.

بالإضافة إلى مزاياه الشخصية، فلا يخفى أن في اليمن، كما في السودان شمالاً وجنوباً. وقد اشتعلت بين الشطرين صراعات دامية، قبل أن يفيء أهل اليمن إلى ظل السلام والوحدة. وقد ذكّر الدكتور الصياد في كلمته البليغة في افتتاح اللقاء، بالعلاقات التي ربطت اليمن بالسودان منذ أقدم العصور، وأضاف:

«لغة العنف والمواجهة أثبتت فشلها... بعد سقوط جدار برلين وقيام دولة ديموقراطية متعددة الأجناس في جنوب أفريقيا... في كل مكان في العالم أصبح أعداء الأمس يعملون سوياً في بناء أوطانهم، يتعانقون ويبدأون صفحة جديدة... عرفنا عنكم في السودان التسامح وتغليب لغة الحوار والحكمة... عرفناكم أهل حضارة ورسل محبة، وأنتم الآن أحوج ما تكونون لهذه الخصال الحميدة... من أجل أطفال السودان ندعوكم للعمل سوياً لبناء غد أفضل...».

كان أحد نواب الرئيس، الدبلوماسي الجزائري المحنّك، الأستاذ محمد سحنون، الذي حاول جهد المستطاع، التوفيق بين الفصائل المتحاربة في الصومال، بتفويض من الأمين العام للأمم المتحدة.

هذا، وقد أشرف على تنظيم اللقاء، الأستاذ أحمد ديده، أحد مستشاري المدير العام لليونسكو، وكان من قبل ممثلاً لموريتانيا في المنظمة. ذلك أيضاً كان اختياراً موفّقاً، فموريتانيا، كما نعلم، هي صنو السودان، فيها جنوب زنجي قح، وشمال عربي. ورغم أن الشطرين يجمعهما الإسلام، بخلاف السودان، فإن ذلك لم يمنع من قيام صراع دموي على ضفتي نهر السنغال.

■ ■ ■

قلت إن اختيار منظمة اليونسكو لمدينة برشلونة ميداناً للصراع الفكري حول السودان ـ وإذا شئت قل الحوار ـ كان اختياراً مناسباً من عدة وجوه.

الجو دافىء مشمس. الهواء يحمل طعم البحر ورائحته، هواء البحر الأبيض المتوسط. ليس مثله هواء. صبا نجد، ذلك شيء آخر. وهواء شمال السودان وقت فيضان النيل، ونضوج التمر في سبائطه ـ أي نعم. إنما تلك مناخات تحرك الشجن، لأن النفس مشبعة بها أصلاً، متهيئة للجيشان.

النشوة التي يبعثها هذا المناخ، نشوة عقلية في المقام الأول، كأنك تقرأ لفيلسوف يوناني قديم. ليست عاطفية، لأن الديار ليست ديارك، وإن كانت ثمة عاطفة، فإنما هي الحسرة، على الذي ضاع والذي يضيع. وقد حار الخيال العربي في أمر هذا البحر. سموه بحر الروم، وهو إن كان بحراً لأحد، فهو بحر (هيلاس) ـ بحر اليونان.

الذي تجده في الهواء ينعكس على المدينة. والذي تجده في المدينة ينعكس على الهواء. هما في علاقة (جدلية) لا تنتهي. ونحن عندنا مدن طريقة المعمار مثل الرياض، ومدن عريقة مثل القاهرة ودمشق ومراكش وصنعاء. ومدن تنهض وتكبو مثل بغداد وبيروت. والخرطوم لا تموت ولا تحيا وبوسعها أن تحيا لو تركوها وشأنها.

برشلونة أمرها مختلف. ليست ضخمة، مثل لندن وباريس وروما بحيث تفسد ضخامتها جمالها. وليست صغيرة بحيث تقتحمها

العين. سكانها نحو ثلاثة ملايين، وذلك يكفي أي مدينة. في سهل بين حرفين من جبال منخفضة، تطل على المدينة من شمالها الشرقي وجنوبها الغربي، فتضيف إليها، ولا تخمد أنفاسها بجبروتها، كما تصنع جبال الألب ببعض مدن سويسرا. أو كما قال الكاتب الفرنسي (شاتو بريان) يصف جبال سويسرا:

> «لا أحب أن تطبق على هذه الكتل الضخمة من الصخر. الجبال تكون جميلة، فقط حين تكون بعيدة عند خط الأفق. هذا شأن العظمة مهما كانت... يحسُن أن تُرى على البعد».

تقع في الشمال الشرقي من إسبانيا في إقليم (كتالونيا) قريباً من الحدود مع فرنسا. وذكروا أن أول من أسسها الفينيقيون القرطاجيون، وأن القائد (حنا بعل ـ هنيبال) سماها (باريسنو) تخليداً لاسم أبيه (أملكار برسا). ثم حازها الرومان طيلة ستة قرون فعمروها، وجعلوا لها سوراً ما تزال بقاياه موجودة إلى اليوم.

ثم تعاقب عليها الغزاة، إلى أن فتحها العرب عام ٧١٦ للميلاد، وذلك بعد ست سنوات فقط من أول عبور لهم إلى أرض إسبانيا. لكنهم لم يحتفظوا بها طويلاً، فقد مكثوا فيها خمسة وثمانين عاماً فقط. إذ انتزعها منهم في عام ٨٠١م، (لويس أليباسو) ـ أي لويس التقيّ كما كانوا يسمونه. وهو ابن (شارلمان) ملك الفرنجة وأمبراطور ما كان يسمى بـ (الأمبراطورية الرومانية المقدسة).

وكان سبب سقوط برشلونة في أيدي الفرنجة هو تآمر العرب بعضهم ضد بعض، ذلك التآمر الذي بلغ ذروته فيما بعد، بإيعاز من الخليفة العباسي في بغداد، الذي لم يطب له أن تقوم دولة أموية

في إسبانيا. ولعل ضياع برشلونة في ذلك الوقت المبكر، كان بداية الانحدار العربي في الأندلس، الذي انتهى بسقوط غرناطة في كانون الثاني/ يناير ١٤٩٢م. وكانت أسباب سقوطها، هي الأسباب نفسها التي أدت إلى سقوط برشلونة قبل نحو ثمانية قرون. بدأ العرب يسقطون وهم في أوج انتصارهم.

كانت تلك الأقاليم ـ كتالونيا وليون وناثار وأكوتين وبقية الممالك عند جبال البرنيز ـ قاعدة لمناهضة الوجود العربي في إسبانيا. ذلك لأن العرب لم يستطيعوا أبداً أن يخضعوها ويضموها إلى حكمهم. وقبل أن يفعلوا ذلك، قفزوا إلى فرنسا، يطلبون إخضاعها!

بلى، لم يمكث العرب طويلاً في برشلونة فليس لهم فيها أثر. لا في المعمار، ولا في وجوه البشر، ولا في أسلوب العيش. توجد فقط، أطياف بعيدة من سمات فينيقية، كما ترى أحياناً في وجوه بعض الناس في تونس ولبنان.

■ ■ ■

بذلت منظمة اليونسكو جهداً واضحاً كي تهيىء مناخاً يساعد المشاركين السودانيين في ندوة برشلونة، على استدعاء عواطف الخير في أنفسهم، وتغليب هواجس الحكمة والعقل، على هواجس البغضاء وسوء الظن.

**البغضاء وسوء الظن، هو الإرث الذي آل إلى السودانيين في الشمال والجنوب، من الماضي البعيد والقريب، فوقرت في قلوبهم أشياء، بعضها حق وبعضها باطل. وأكثر ما وقر من ذلك في**

قلوب الجنوبيين. وكما حدث طوال التاريخ، فإن الشرّ، أو توهّم الشرّ، يقود إلى مزيد من الشر. وتمضي الأمور من جهالة إلى جهالة، حتى يغدو الفكاك من ربقتها مستحيلاً، إلّا بقفزات هائلة في الخيال، أو بثورات هائلة في الروح.

هكذا يقف السودانيون اليوم بعضهم إزاء بعض. الجنوبيون أيديهم ملطّخة بدماء الشماليين، وأيضاً بدماء الجنوبيين. والشماليون أيديهم ملطّخة بدماء الشماليين كما هي ملطّخة بدماء الجنوبيين. كلهم قاتل مقتول، ظالم مظلوم. والأمة التي تمعن في جنون كهذا، ولا تدرك أنه جنون، أمة لا تستحق البقاء.

كان حريّاً بالسودانيين أن يدركوا ذلك من زمن، لما يظنّونه في أنفسهم من فضائل الحكمة والعقل والتحضر. أما وأنهم عجزوا ـ أو أن زعماءهم عجزوا ـ فيجب ألا نهوّن من جهود الآخرين الذين يريدون أن يساعدوا على وضع حدّ للمأساة. وهي مأساة بالفعل.

كان الماضي هو محور حديث (فدريكو مايور) المدير العام لمنظمة اليونسكو. وقد أعجبني قوله:

**«لا تتشبثوا بذكريات الماضي، بل تشبّثوا بذكريات المستقبل.. الماضي مثل المرآة الخلفية للسيارة.. تنظر إليها لتتبين الطريق إلى الأمام.. نحن لا نطلب منكم أن تتخلّوْا عن قناعاتكم.. لكننا نطلب منكم أن تغيّروا الوسيلة التي تدافعون بها عن تلك القناعات».**

كانت كلمة مؤثرة ذات روح شاعري، إذ إن مستر (مايور) شاعر معروف في إسبانيا. وقد أسهب في الحديث عن بشاعة الحروب، وقال إن الحروب تنتهي دائماً بالهزيمة لكل الأطراف المتحاربة. ونوّه بوجوه الشبه بين إقليم (كتالونيا) ـ وهو مسقط رأسه ـ وبين السودان من حيث التنوع الثقافي والثراء الحضاري، والاستعداد للعطاء والإبداع في مناخ السّلم. وأشار إلى كثرة المبدعين في (كتالونيا) من شعراء وكتّاب وفنانين.

ومعلوم، أن إسبانيا بعد موت (فرانكو)، أخذت بنظام الحكم الفدرالي، فأصبح إقليم (كتالونيا) ـ وهو إقليم عرف بنزعته الانفصالية منذ استقلاله عن الحكم العربي في القرن التاسع الميلادي ـ أصبح شبه دولة مستقلة في إطار الحكم الفدرالي، له دستور وبرلمان وحكومة مستقلة.

أعقب ذلك، عرض من أحد مساعدي المدير العام، للجهود التي بذلتها منظمة اليونسكو من قبل في دعم ما أسمته المنظمة بـ (ثقافة السلام). وقد تردّدت في عرضه، كما في كلمة (مستر مايور)، عبارات مثل (المشاركة ـ التعددية ـ بناء السلام ـ التنمية في مناخ السلم ـ منع حدوث الصراع).

هذا، وقد كانت (التنمية) هي بطبيعة الحال، محور حديث ممثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية في السودان. وقد بدا لي، أن حديثه لا بدّ أن يهز ضمائر الأطراف المتصارعة المجتمعين في تلك القاعة، ويحرّك في نفوسهم الإحساس بالندم والحسرة. ذكّرهم بالأضرار التي سببّتها الحرب للشمال والجنوب، والعقود من الزمن التي ضاعت، وكان يجب استثمارها في التنمية والتعمير، وأنه لا يمكن

عمل أية تنمية إلّا في ظل السلام. وقال: «السودان بلد متخلّف، بشقّيه الشمالي والجنوبي».

تلك العبارة شدت انتباهي، ذلك لأن الجنوبيين يزعمون، أن الجنوب وحده متخلّف، وأنه وحده الذي حاق به الدمار والخراب.

ومن ناحية أخرى، تزعم الحكومة، أن التنمية قد عمّت السودان بشقيه، وذلك نتيجة لجهودها المتواصلة وسياساتها الحكيمة!

كل ذلك أحدث أثراً، فقد مضى الحوار بعد ذلك بنبرة هادئة، إن لم يكن موضوعياً تماماً، فقد كانت تغيب عنه الهستيريا. كانت المرارة الكامنة لدى الجنوبيين، تظهر أحياناً، تنمُّ عنها بعض العبارات وبعض التعابير على الوجوه. وكانت الحكومة ـ كما بدا لي ـ رغم عقلانية رئيس وفدها، ومحاولات ممثليها لتبرير أعمالها، كالذي يتمنى أن يحصل على شيء، لكنه لا يريد أن يدفع الثمن!

■ ■ ■

بدا لي، كأن شيئاً قد حدث في ذلك الاجتماع. ربما بتأثير المناخ العقلاني المتفائل الذي بثّتْه منظمة اليونسكو، ربما بتأثير جاذبية المدينة الساحرة، وهواء البحر الأبيض المتوسط.

**قال لي أخ جنوبي، ونحن نتجول في مدينة برشلونة، وقد وقفنا على ساحة مبلّطة بحجارة ملوّنة كأنها تحفة فنية. كانت الساحة على هضبة، فأشرفنا منها على المدينة بسقوفِ بيوتها من القرميد**

الأحمر تلمع في ضوء المغيب. الشوارع الواسعة والميادين الأنيقة والأبراج المتطاولة. قال:

«انظر إلى كل هذا الجمال. نحن في السودان نتقاتل على لا شيء».

قلت له:
«أنتم في السودان تتقاتلون على جُثّة. تطالبون بالعدالة في تقسيم الثروة. أين هي الثروة التي تريدون تقسيمها؟».

بلى، لعلّهم أخذوا يحسّون بتأنيب الضمير. الوقت الذي ضيّعوه في التدمير بدل البناء. آلاف الأرواح التي أزهقت في الشمال والجنوب، آلاف الناس الذين اقتُلعوا من مواطنهم، وتشتّتوا في أرجاء الدنيا.

ربما لأجل ذلك خفتت الأصوات، وهدأت الحدّة، وحاول كل واحد أن يمسك بزمام عواطفه. حتى جماعة (رِكْ مَشارِ) الذين يدعون صراحة لانفصال الجنوب، عبّروا عن مواقفهم في حياء وحذر. لم تتغيّر نظرتهم للتاريخ ولا نظرتهم للشمال، لكن حُججهم كانت أقلّ مرارة وأقل حدة.

حتى رئيس وفد الحكومة الدكتور غازي صلاح الدين العتباني، هو أيضاً كأنما سرت فيه عدوى ذلك المناخ الإيجابي. كان قليل الكلام خلال الجلسات، وكان يتحدث بصوت هادئ. وقال إن الحكومة تقبل مبدأ الديموقراطية والتعددية، وهو ما تنفّذه فعلاً.

جلست معه وتحدثت معه مطوّلاً، ولم أكن قد عرفته من قبل.

وجدته إنساناً مهذباً دمثاً حسن المعرفة بالتاريخ حتى حسبته مؤرخاً، فإذا هو طبيب. ولا أنكر أنني أحسست بالتناقض بين الإنسان الجالس معي، وصورته في ذهني. ذلك لأن ما يُنشر بلسانه في الصحف، ينمّ عن رجل متطرّف في آرائه، متشدّد في مواقفه، أميل إلى الخصام منه إلى الوئام.

كذلك أدهشني شاب اسمه (باقان) من قادة الحركة الشعبية لتحرير السودان التي يتزعمها (جون قَرَنْق). ويقال إنه الرجل الثاني في الحركة. هو أيضاً بدا لي لطيفاً مهذباً مثقفاً. وقد تدرّب في كوبا، فأصبح يجيد اللغة الإسبانية، إلى جانب الإنجليزية والعربية.

كانت مساهماته في الحوار، كلها رصينة معتدلة. وخطر لي، وأنا أستمع إلى حديثه في الاجتماع، وحين حاورته خارج الجلسات، أن السودان لو كان متحداً مستقراً ليس فيه حرب بين شماله وجنوبه، لكان حريّاً أن يكون ذلك الشاب من زعمائه.

كيف تستقيم هذه الأمور؟ كثيرون من هؤلاء الناس الطيبين المسالمين الذين ضمتهم تلك القاعة في برشلونة، حملوا السلاح، وقتلوا أو حرّضوا على القتل، وخرّبوا أو شجعوا على الخراب.

كل الجنوبيين الذين ضمتهم تلك القاعة، يتحدثون اللغة العربية. أغلبهم من خريجي جامعة الخرطوم. عاشوا في الشمال، وعاشروا الشماليين، وأكلوا معهم العيش والملح، وربطتهم بعضهم ببعض علائق وصداقات. وبعضهم كان قد فضّل الاستقرار في الشمال.

هل الخطأ فيهم أم في الشمال أم في الحكومة أم في التاريخ؟

الله أعلم ماذا يحدث لهم حين يتركون هذا المناخ المعتدل ويرحلون عن هذه المدينة الجميلة؟

ماذا يحدث لغازي صلاح الدين حين يعود إلى الخرطوم بمناخها الهستيري وسياساتها (اليقينية) وأحلامها المستحيلة؟

وهل يظل (باقان) وبقية المحاربين الجنوبيين كما كانوا في برشلونة، أم تتبدّل أحوالهم، وتتبلبل عقولهم، حين يعودون إلى معسكراتهم وجنودهم وسلاحهم؟

■ ■ ■

كان في لقاء (برشلونة) من المفكّرين السودانيين، منصور خالد، وبونا ملْوال، وفرانسس دِنْق. وفي جانب الحكومة، عبد الوهاب الأفندي الذي كان إلى وقت قريب ملحقاً ثقافياً في سفارة السودان في لندن، ونور الدين ساتّي سفير السودان في باريس.

الثلاثة الأوائل كلهم نبَهوا في عهد الرئيس السابق جعفر النميري، وأنبههم لا مراء، الدكتور منصور خالد. كان وزيراً للشباب، ثم وزيراً للخارجية ثم وزيراً للتربية، ثم مستشاراً لرئيس الجمهورية. ذلك بالإضافة إلى مناصب رفيعة أخرى. وكان في وقت من الأوقات مقرباً من الرئيس، واسع النفوذ. وكانت له اليد الطولى في صياغة الدستور الذي كرّس به النميري عهده، ثم أشاح عنه حين أراد أن يختطّ خطة أخرى. وربما يعود الفضل الأكبر لمنصور خالد في إنجاز صلح أديس أبابا عام ١٩٧٢، الذي أوقف الحرب بين الشمال والجنوب، وهيّأ سلماً دام عشر سنوات.

ثم ساءت الصلات بينه وبين الرئيس، لأسباب شرحها الدكتور منصور خالد في كتبه باللغتين العربية والإنجليزية. وهي كتب كلها تحفز على التفكير والتأمل، منها كتاب عنوانه (لا خير فينا إن لم نقُلْها)، وهو عبارة عن مقالات كان منصور خالد قد نشرها في صحيفة يومية في الخرطوم، إثر خروجه من الحكم ونفض يديه منه.

كانت مقالات جريئة، كشف فيها المؤلف أخطاء النميري وعهده كما رآها. وبقدر ما تُحمد له شجاعته في النشر، خاصة في ذلك الوقت والعهد المايوي في ذروة ارتفاعه، كذلك يحمد للنميري أنه لم يمنع نشر المقالات، وكان بطبيعة الحال يقدر أن يفعل. وتلك من غرائب النظم (الشمولية)، أنها أحياناً بوعي أو دون وعي تفعل أشياء عكس طبيعتها.

الجرأة العقلية من سمات الدكتور منصور خالد منذ هو طالب علم يافع في مدرسة «وادي سيّدنا» الثانوية في أواخر الأربعينيات، قادته تلك الجرأة إلى أن ينحاز إلى معسكر الحركة التي يقودها (جون قرنق). ورغم أنه لم يكن الشمالي الوحيد الذي فعل ذلك، فإن تحوله أحدث بلبلة بين رفقاء صباه وأصدقائه والمعجبين بفكره. وكنت أحد الذين عجبوا لذلك التحول.

تساءل الناس كيف أن رجلاً نشأ في بيت علم ودين في مدينة أم درمان العتيدة، وامتلأ وجدانه بعشق اللغة العربية وتراث الإسلام؟ من أكثر الناس فصاحة عربية حين يتحدث أو يكتب، وشاعره المفضل هو أبو الطيب المتنبي. كيف انحاز إلى حركة بدا كأنها تهدف إلى اقتلاع (الكينونة) العربية الإسلامية من أرض السودان؟

الذين أحسنوا به الظن قالوا لعله رأى ما لم يروْا وعرف ما لم يعرفوا.

أياً كان الأمر، فإن موقف الحركة قد تغيّر الآن فانصاعت في نسق المطالبين بالوحدة إنما على أساس التعدد والشرعية الديموقراطية. وربما كان لمنصور خالد يد في ذلك الاعتدال.

إنه على أية حال، سواء راق لك أم لا، وسواء اتّفقت معه أو لم تتفق، فإنك لا تستطيع أن تنكر، أنه من أكثر المفكرين، لفتاً للنظر وتحريكاً للاهتمام، لا في السودان فحسب، ولكن في اتساع العالم الثالث على إطلاقه. وحين ينطوي ظل هذا العهد القائم ـ والظلال لا بد أن تنطوي طال نهارها أم قصر ـ فسوف يكون له شأن.

أما بونا ملوال، فهو من قبيلة (الدّنكا) الغالبة في الجنوب، التي منها أيضا (جون قرَنْق). ويقال أنها أكثر قبائل السودان عدداً. وهي قبيلة في تاريخها وسلوكها، عصبية وعنجهية لا تبعد عن طباع القبائل العربية. وشأنها بين قبائل الجنوب، كما يزعم الجنوبيون من شأن قبائل الشمال العربية معهم.

هو أيضاً نبغ في عهد النميري، فعمل بين ما عمل، وزيراً للإعلام. وهو من أكثر الجنوبيين معرفة بالشمال، فقد درس عندهم وعاش بينهم وربّى معهم صداقات واسعة حتى أصبح هو نفسه يقول إنه شمالي. وكان الناس يحترمونه لنزاهته وشجاعته في مجابهة النميري وهو في عنفوان قوته.

كاد يصير شخصية قومية مثل (أبل ألير) من هؤلاء الرجال الذين تلوذ بهم الأمم في النوائب والملمّات.

لكنه لسوء الحظ، اتخذ فيما بعد مواقف أخذت تزداد تطرّفاً يوماً بعد يوم، إلى أن بلغ به أنه شبّه الشماليين بالمستوطنين البيض في جنوب أفريقيا!

قد يكون له بعض العذر. الحكم القائم اليوم، أظهر في السنوات الست الماضية أصنافاً عجباً من الرعونة والتطرف. فلا جرم، أنه حتى العقلاء أمثال بونا ملوال، أصابتهم العدوى. لذلك أسعدني أنه في ندوة (برشلونة) كأنه يعود إلى ما عُرف عنه، فكان أميل إلى الاعتدال، وأمْيل إلى الوحدة، وأسرع استجابة لنداء السّلم.

■ ■ ■

يحار المرء في أمر السودانيين. هؤلاء الناس المجتمعون في هذه القاعة في برشلونة، كل واحد منهم أخو فضل وعلم وخُلق. ومثلهم كثيرون رجالاً ونساء. لماذا إذاً لم ترْسِ سفينتهم على برّ منذ أربعين عاماً؟ ظلوا يتخبطون يميناً ويساراً وشرقاً وغرباً.

خُذْ مثلاً عبد الوهاب الأفندي، شاب ذكي ودود عالي الهمّة. كان طياراً، ثم درس الآداب في جامعة الخرطوم. ثم أخذ الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة (ردِنْج) في إنجلترا.

كلما ألقاه أقول له مازحاً، وهو يحاول أن يجرّني إلى معسكره: «أنت لا تُشبه هؤلاء الناس، فما الذي ورّطك هذه الورطة؟».

جعلوه مستشاراً ثقافياً في سفارتهم في لندن، فظل يكتب ويحاضر ويؤمّ المؤتمرات يحاول أن يكسو سياسات الحكومة ثياباً أجمل مما تستحق. وكذلك هو الآن في برشلونة. لم يأل جهداً وكان في حديثه يحاول أن يجد قواعد مشتركة مع المعسكر الآخر. وقد أصدر مؤخراً كتاباً حسناً محّص فيه أخطاء الحكم، من منطلق الانتماء لهم والحدَب عليهم. وهو نقد أحرى بهم أن يأخذوه مأخذ الجد، لو كانوا يريدون الإصلاح حقاً. وما أظنُّهم يفعلون.

ونور الدين ساتّي السفير في فرنسا. واضحة عليه سيماء جامعة الخرطوم كما كانت في أيامها الخوالي، قبل أن يقوّضها هذا العهد في ما قوّض، ومن قلة من الدبلوماسيين المدربين الذين لم ينبذوهم نبذ النّوى كما فعلوا مع عشرات منهم. أخذ الدكتوراه من السوربون. أنيق في مظهره وفكره وحديثه، إذ النظامُ الذي يمثله في تلك العاصمة الأنيقة أميل إلى الخشونة والرعونة، فلا أدري كيف يصنع! هو الآخر استمات في الدّفاع عن النظام. ومَن يلومه؟

وفرانسس دِنْقْ. نتاج تعليم أنجلو سكسونيّ محض، في جامعة الخرطوم، ثم في لندن، ثم في أمريكا حيث هو الآن (زميل) في معهد (بروكنقر) الذائع الصيت.

تعهده منصور خالد في وزارة الخارجية فعمل سفيراً في السويد وفي كندا، فوزيراً للدولة حين كان منصور خالد وزيراً للخارجية. وفي سمته شيء من صديقه وأستاذه.

نشأ على تخوم (بحر العرب) حيث القبائل العربية في جنوب (كُرْدُفان)، تتعايش منذ حقب مع قبائل (الدنكا)، يتحاربون مرة،

ويصطلحون مرة. فاستقرت حياتهم على ذلك النمط، لا غنى لأحدهم عن الآخر، وفرانسس دنق يفهم ذلك حق الفهم، فقد كان أبوه من شيوخ العشائر.

رجل مصقول (كوزموبوليتان) يحسن اللغة العربية، وناصع البيان باللغة الإنجليزية. ثم هو أيضاً كاتب روائي لديه قُدرة الروائيين على النظر إلى الأمور من أكثر من زاوية.

ظل معتدلاً طول حياته، إلّا أن مرارة الجنوبيين المتزايدة أخذت تؤثر عليه. ولعله إن جدّ الجد ينحاز إلى عشيرته في الجنوب. فمن يلومه؟

إنما من كل شخص ذلك المسرح، الشخصية التي شدت انتباهي أكثر وأثارت خيالي، كانت تلك السيدة الجنوبية (آقْنس لكُدر) حاكم ولاية (بحر الغزال).

كنت قد صادفتها العام الماضي في مؤتمر عُقد في لندن، فلم أكترث لها. بدت لي حينئذٍ متهورة في حماستها للنظام، كأنها لا تؤمن بما تقول. لكنها في هذا اللقاء ـ ويا للغرابة ـ فجأة اكتسبت أبعاداً جديدة، مثل بعض شخوص المسرح، تبدو لك تافهة أول الأمر، ثم إذا هي أضخم وأهم مما ظننت.

كانت تجلس على طرف وفد الحكومة، كأنها ليست منه، وتواجه الجنوبيين خصوم الحكومة، فكأنها ليست جنوبية. كأنها انتزعت من الفريقيْن استقلالها الإنساني، فأصبحت (أُمّة) قائمة بذاتها.

كان حديثها خالياً من أية نبرة خطابية، ومن أية محاولة للتأثير، ومن

أي إحساس بالذنب، ومن أدنى جهد للإعراب عن الولاء للنظام القائم.

بدت لي فجأة امرأة ذات أبعاد (مثلوجيّة)، أكبر من الصراع المُسْتقر، وأكبر من كل الرجال الذين يلهبون نيران ذلك الصراع. مثل فاطمة أحمد إبراهيم. مثل كل الزوجات الأيامى والأمهات الثواكل، في الجنوب والشمال، وفي البوسنة وفي أفغانستان وفي الصومال وفي رواندا وفي كل مكان.

وفي لحظة درامية عالية، نظرتْ إلى الجنوبيين قبالتها وقالت لهم ببساطة:

«إنكم حكمتم من قبل، فماذا فعلتم؟ ولو عدتم إلى الحكم فلن تفعلوا شيئاً».

وكان سؤالها ـ كما خُيِّل لي ـ يشمل السياسيين السودانيين منذ الاستقلال إلى اليوم، شماليين وجنوبيين. ويشمل الحكم القائم الذي هي من وُلاة أقاليمه.

قالت إنها تحاول أن تصلح بعض ما أفسدته الحرب. تدبّر المأوى للمشردين والعلاج للمرضى والتعليم للأطفال والعمل للعاطلين.

تحاول أن تعيد الحياة إلى طبيعتها بقدر الإمكان، مستعينة ببرنامج الأمم المتحدة للتنمية ووكالات الإغاثة وكل من يمدّ لها يد العون.

بمن تذكّرني هذه السيدة من شخوص المسرح؟ بـ (الأم الشجاعة)

لـ (برخْت)؟ بـ (القديسة جون) لـ (بيرنارد شو)؟

ربما هي أقرب إلى (كليون) في مسرحية (آنتقونا) للكاتب الفرنسي (جان آنوي). هو أيضاً اكتَسب (المبرر الأخلاقي) أنه حاول أن يصلح الخراب الذي أحدثه (أوديب الملك).. بقدر الإمكان.

قلتُ إن شيئاً ما قد حدث في ذلك اللقاء. لعلّ ذلك هو.

## ٢٧

ربما يذكر القارئ أنني أيام حرب الخليج، حين كان العالم العربي يحترق بالفعل، كنت أكتب عن (الأميّة) وعن قبائل (أبوروجينز) في أستراليا!

ماذا كان بوسعي أن أقول عن تلك الحماقة الكبرى؟ وعلى أي حال، يوجد كُتّاب هم أقدر مني على استقراء مثل تلك الأحداث في وقتها، واستخلاص العبر بأوانها. ولعل القارئ الحصيف وجد علاقة ما بين (الأمية) في العالم العربي وبين حرب الخليج! بين قبائل الـ (أبوروجينز) في أستراليا وبين حرب الخليج!

أنا وأمثالي من الكتّاب، نجتهد أن ننظر إلى الثوابت تحت السطح. نحاول أن نضع الأمر العابر ـ مهما كان جللاً ـ في سياق أحداث الماضي وما يُحتمل أن يلده المستقبل.

نريد أن نوقظ ذاكرة قومنا، ونستنهض هممهم، ونحرّك أريحياتهم. وإذا كانوا لا يتّعظون بتاريخهم، فلعلهم يتّعظون بتاريخ غيرهم من الأمم.

أليس عجيباً أن السويسريين، على ضآلة عددهم وضيق رُقعة أرضهم، وشُح مواردهم، وقلّة حيلتهم، استطاعوا أن ينجزوا في القرن الثالث عشر أمراً لم يستطع العرب أن ينجزوه إلى اليوم؟

لم يقيموا وحدة حينئذٍ ـ هذا الحلم العربي الفادح الذي اشتعلت من أجله الثورات والانقلابات، واندلعت حروب انتهت كلها بالهزائم.

السويسريون في القرن الثالث عشر لم يصنعوا وحدة لأنهم لم يطلبوها أصلاً. وإذا كانوا قد حلموا بها، فقد جعلوها سراً في ضمائرهم، كما قال السياسي الفرنسي (قامْبتّا) عن هزيمة عام ١٨٧٠ «فكروا فيها دائماً ولكن لا تتحدثوا عنها أبداً».

في القرن الثالث عشر، اتخذ السويسريون الخطوات العملية لقيام الوحدة في المستقبل. خلقوا ولاء عاماً للمواطنين في رقعة الأرض التي حرروها من استبداد أمبراطورية الـ (هابسبيرق)، وقد كانت (سوبر بور) في ذلك الزمان.

أنشأوا حلفاً للدفاع المشترك، لم يكن حبراً على ورق، ولكنهم التزموا وعملوا به. أنشأوا نظاماً للتحكيم في النزاعات التي توقعوا أن تجد بينهم، وتعاهدوا أن تفرض قرارات المحكمين بالقوة إذا استدعى الأمر. وكذلك فعلوا.

ولعل العرب لو كانوا صنعوا في أخريات القرن العشرين، كما صنع السويسريون في أخريات القرن الثالث عشر، لما كانت حرب الخليج تشبّ أصلاً.

السويسريون لم ينسوا شيئاً من تاريخهم، في مسيرة نضالهم الطويلة. اسم دولتهم، ولون علمهم، وتكوين جيشهم، ونظام إدارتهم، كل ذلك حملوه معهم منذ القرن الثالث عشر، وطبّقوه على حياتهم إلى اليوم.

نحن نفعل عكس ذلك تماماً. كل عشرة أو عشرين عاماً، يجيئنا (مخلِّص) مُلهم، يمحو ما حدث قبله، ويبدأ من جديد.

خُذْ على سبيل المثال إخواننا (عباقرة الإنقاذ) في دولة السودان. هؤلاء كأنهم يكتبون على صفحات بيضاء لم يكتب عليها أحد قبلهم، علماً بأن تاريخ السودان يمتد إلى الوراء أكثر من أربعين قرناً.

وجدوا شعباً حسن الإسلام، فآلوا على أنفسهم أن ينزّلوا عليه الإسلام من جديد. وجدوا أمة كريمة أبيّة متراحمة فأهانوا كرامتها وجرحوا كبرياءها ومزّقوا شملها. وجدوا شعباً صابراً راضياً بقسمته، يعيش مستوراً ولو على الكفاف، ولكنه يعمل ويكدح وتتحسن أحواله عاماً بعد عام، فأذاقوه وبال الجوع والهوان، كي يقولوا إن الشعب كان جائعاً قبلهم، وأنهم هم الذين جاءوه بالمنّ والسلوى.

وجدوا دولة ـ على علاّتها ـ ذات هيبة، تنصر الأخ وترعى حقوق الجار، ويحسب حسابها بين الأمم، فحولوها إلى دولة تافهة لا يقام لها وزن، لا تنصر مظلوماً ولا تردع ظالماً. أوراق عملتها تحمل

بالزنابيل والزّكائب لشراء رطل البصل والطماطم. ثم نادوا، هذه أمة صارت الآن مؤهلة لزعامة العالم!

ماذا باللّه عليك يستطيع الكاتب أن يكتب في حمأة هذا الجنون؟

من أجل ذلك أفيء إلى ظل الأدب وأنماط حياة الشعوب وتاريخ المسلمين والعرب وسيَر الأمم.

وكذلك أكتب عن تاريخ سويسرا وأقول، إن كان قومُنا لا يتّعظون بإرثهم وتأريخهم، فلعلّهم يأخذون الحكمة من أفواه السويسريين.